القِسمُ الأوّلُ

عَنِ اللُّغَةْ

[نشأةٌ . وقضايا]

obeikandl.com

obeikandl.com

مَدْخَل

لايضير هذه الصفحات ــ منذ البدء ــ أن تعترف بأنها هنا لاتقدم جديدا فى (علم اللغة). وبخاصة إذا عرفنا أن وظيفة اللغوى فى هذه المرحلة (لم تعد فرض القواعد ، وإنما هى مجرد وصف للحقائق المقررة) . كما يقول آرنولد سميث .

وإذا كان غرور الجهل يدفع ببعض الساذجين إلى الامتلاء الذاتى بما يسوّدون من الصفحات البيضاء . فإن هذه السطور تعرف جيداً قيمة التواضع العلمى ، الذى ينحنى فى خجل وهو يمسك أوراقه الذابلة بيديه ، فى حضرة هذا الرائع الجليل اللامتناهى الذى اسمه : (العلم) .

لقد أفادت هذه الصفحات من مصادر كثيرة أتيحت لها ، ومن مصادر أخرى كثيرة أتاحها لها آخرون ، وهى فى كل أولئك تدعو بالمغفرة للسالفين ، وبمزيد من العطاء للخالفين ، آملة أن تكون قد أجادت عنهم الفهم وأحسنت فى تلقيها عن حضورهم العلمى فيما أبدعوا من شوامخ الأعمال، وأن يتسامحوا إذا اتكأنا عليهم فى كثير من أشواط الرحلة الطويلة ! !

obeikandl.com

عن اللغة العربية

من العصر الجاهلى – إلى العصر الحديث

اللغة – أية لغة – ظاهرة إنسانية إجتماعية، نعرف بها الملامح المميزة لكل مجتمع فى كل عصر من عصور التاريخ .

وهذه اللغة ، مجموعة من الرموز التى يتعارف عليها المجتمع ، فلا قيمة للأصوات والكلمات والصيغ ما لم تفدْ رموزاً معينة يستعين بها المجتمع على تلبية حاجاته وضروراته أى أن (اللغة أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم)(١) .

وهى رموز عاملة فى مجال تطوير الحياة الفكرية ودفعها إلى الأفضل كسائر الرموز الأخرى (أليستْ هذه الألفاظ العامة التى نستعملها : كالشجرة والإنسان والبشرية والحرية ، أشبه بالرموز الرياضية ؟ أليستْ أشبه بالنقود التى يرمز بها إلى القيم ؟ أولم تكن الرموز الرياضية والاقتصادية وسيلة للرقى فى الميدانين الفكرى والاقتصادى ؟ وكذلك اللغة ، فهى لم تقتصر على كونها معبّرة عن التفكير ، بل كانت كذلك أداة نمائه وارتقائه(٢) .

و (فقه اللغة) يقوم على أساس من الاهتمام بالكلام . ومحاولة التعمق فى دراسة قواعده وأصوله وتاريخه ، ومن هنا فقد اهتم علماؤنا القدامى بقواعد اللغة تأصيلا وتقعيدا . . وبتاريخ أدبها تسجيلا وتدوينا . . وبنقد نصوصها تفسيراً وتأويلا .

أما منهج البحث فى فقه اللغة المعاصر ، فقد أصبح منهجاً استقرائياً

---

(١) ابن جنى – الخصائص – ١/٣٣ . وأنظر : (المزهر) للسيوطى – ج١ – ص ٧ .
(٢) محمد المبارك – فقه اللغة ص ٢ .

وصفيا ، (يعرف به موطن اللغة الأول ، وفصيلتها ، وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة الشقيقة أو الأجنبية ، وخصائص أصواتها ، وأبنية مفرداتها وتراكيبها وعناصر لهجاتها وتطور دلالتها ، ومدى نمائها قراءة وكتابة)(١) . . . وتتعلق هذه البحوث بعلوم ثلاثة إذن . هى : التاريخ . . وعلم الأصوات . . وعلم الدلالة . . فالتاريخ يخوض فى زمن النشأة والاطراد . . والأصوات تركز على التباين العضوى والموضوعى . . والدلالة تشير إلى الثبات والصيرورة فى علاقة الدال بالمدلول .

وقد انتهى البحث فى اللغة إلى مجموعة من النتائج التى أصبحت مسلمات مستقرة فى الدراسات اللغوية ، لعل من أهمها :

١ – التخلى عن نظرية التوقيف (الإلهام الإلهى) . واعتبار اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية والكف عن المضى فى عبثية البحث عن اللغة الإنسانية الأولى .

٢ – تخليص الدراسات اللغوية من التأويل والتقدير والاعتبارات الفلسفية والاتجاه إلى دراسة اللغة وجهة موضوعية إحصائية .

٣ – ضرورة التفريق بين الحقائق اللغوية التاريخية والوصفية الثابتة .

٤ – تقسيم اللغات إلى عائلات ، ودراسة كل مجموعة منها تنتمى إلى عائلة واحدة دراسة مقارنة لمعرفة حقيقة التطور الذى مرت به ، والأصل اللغوى الذى صدرت عنه(٢) .

هذا عن اللغة بشكل عام . . فماذا عن اللغة العربية ؟ وماذا عن مسيرتها منذ العصر الجاهلى حتى الآن ؟

---

(١) د. صبحى الصالح – دراسات فى فقه اللغة ص ٢١–٢٢ .

(٢) أنظر اللغة والتطور – د/ عبد الرحمن أيوب ص ٢٢ .

(٢)

بلغت العربية فى العصر الجاهلى (من قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام سنة ٦٢٢م) شأواً بعيداً فى النضج والاكتمال ، مما يدل دلالة قاطعة على أن هذه اللغة ترجع فى أعماق التاريخ إلى آماد سحيقة ، لأن مثل هذا التطور الهائل لا يمكن بداهةً أن يتم بين يوم وليلة . . ؟ وإذا كان التاريخ لم يع جيدا خطوات هذا التطور اللغوى منذ فجر تاريخه وعياً كاملا ، فإن هذا لا يعنى أبداً أن هذا الفجر غير موجود .

(٣)

وفى العصر الإسلامى (من ظهور الإسلام إلى سنة ٤١هـ) أخذت العربية – كلغة دين إلى جوار كونها لغة فن وفكر وحياة – تحتل مواقعها البارزة فى الحياة العربية والإسلامية بعامة ، فلقد حملها الفاتحون المسلمون إلى أصقاع نائية من أسبانيا غربا ، إلى أواسط آسيا نحو المشرق .

واذا كان القرآن الكريم قد أعطى هذه اللغة قيمة الخلود فى التاريخ من حيث هو كتاب مقروء ومتعبَّد بتلاوته ، فإن الجهود البشرية التى استقطبت القرآن محوراً لاهتماماتها الفكرية والفنية قد أعطت لهذه اللغة عطاء موصولا فيما بعد .

ولكن عرب البادية ظلوا سدنة لهذه اللغة ، يحفظون متنها من التحريف ، ويحمون معجمها من التبدد .

على أن هذا الحرص الحريص لم يمنع اللغة من جريانها الطبيعى فى مضمار التطور وفق إيقاع الاختلاط البيئى والبشرى والثقافى ، فلقد انسحت هذه اللغة – بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم – فى أمصار متفرقة ، وتأثرت بداهة بهذا الجديد .

— ٤ —

وفى عهد الدولة الأموية (٤١هـ — ١٣٢هـ) كثرت هجرات القبائل العربية الفاتحة حاملة معها لهجاتها نحو الشمال إلى فلسطين وسورية وما بين النهرين حتى جبل طورس وجبال أرمنية . . ونحو الشرق عبر العراق إلى إيران . . ونحو الغرب عبر شبه جزيرة سيناء إلى مصر وشمال أفريقية . . إلى غير ذلك كله من الأمصار والأقطار .

وطبيعى أن تؤثر العربية فى هذا المعترك وأن تتأثر كذلك ، وأن يقيض التاريخ لها من الأنصار من يثرى جوانب نحوها ولغتها ومتنها . . ومن الأعداء — أيضاً — من يحاول طمسها أو تحيفها أو النيل منها على الأقل .

ومهما يكن من شىء ، فلقد ظل العصر الأموى حريصاً على طابعه العربى ، على الرغم مما شابه من اختلاط العرب بغيرهم ، وظهور بوادر الخطأ اللغوى ، وبروز بعض خصائص أجنبية فى اللسان العربى المتمكن وفتور الإحساس اللغوى منذ أواخر القرن الأول .

من هنا نشأت الحاجة فى هذا العصر إلى ظهور مبدأ (تنقية اللغة) مما دفع بالعلماء إلى التوفر على دراسة قواعدها وتأصيل أصولها حتى تظل بعيدة عن الدخول فى متاهات الخلط والاختلاط .

وبسقوط الدولة الأموية وبزوغ العهد العباسى (١٣٢هـ — ٦٥٦هـ) دخلت العربية طوراً جديدا من أطوار حياتها . فلقد بعد عهد الناس بحياة البادية ، واختلط العنصر العربى الخالص بغيره من العناصر والأجناس ، وشاعت فى الحياة ألوان من التطور الحضارى ، كل أولئك انعكس على حياة اللغة حروفا وأصواتا ومادة وأسلوبا .

على أن القرآن الكريم كان ما يزال عاملا فى ضمير المسلمين على تأكيد أن العربية جزء من الحقيقة الإسلامية ، فظهرت اتجاهات التقعيد اللغوى فى

مدارس البصرة والكوفة ، وظهر اتجاه التأصيل لقواعد اللغة على يد سيبويه ، وظهرت نهضة شاملة فى التعبير على يد العرب والمتعربين من أمثال ابن المقفع و بشار ، وظهرت مؤلفات فى لحن العامة وفى أوهام الخواص خدمت مبدأ تنقية اللغة وأعانت على ردّ الاحتجاج اللغوى إلى عرب البادية . . . ولكن كلّ هذا التحوّط لم يمنع التطور من اقتحام الساحة فدخلت على العربية ألوان من التجديدات استوعبتها كلغة حية وواثقة من نفسها وقادرة دائماً على التمثل والعطاء .

ولكن ، لم يكن كل مادوّنه علماء اللغة فى العصر العباسى صحيحا ، ولم يكن كل علماء اللغة ولا كل المأخوذ عنهم بمنجاة من الخطأ والاختلاق ، وربما كان التنافس المحتدم فيما بينهم من وراء هذه الظاهرة ، وربما كان عدم فهم معنى بعض الكلمات أو الخطأ فى بعض الحوادث التاريخية سببا آخر من أسبابها . . ويبدو أن معاجم اللغة جاءت فجمعت كل ما وجدت ، وتأوّلت الخطأ ، وصوّبت الأغلاط ، وأخذت كل الآراء على اختلافها وتباينها بلاتحقيق .

وربمّا كان من الحق أن يقال إن معجم اللغة قد أثرى فى هذا العصر ثراء ملحوظا وذلك من طريقين : **طريق التوسع فى مدلول الكلمات العربية** : كالفاعل والمفعول النحويين ، والقضية والموضوع والمحْمُول فى المنطق ، والطويل والخفيف والمديد فى العروض ، فقد كانت لهذه الألفاظ معانيها الوضعية المحددة فى الاصطلاح القاموسى قبل أن تنشأ هذه العلوم التى أستعملت فيها ، وحين استحدثت هذه العلوم خرجت هذه الألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى تدل على حركة حلولها الاصطلاحى فى النحو والمنطق والعروض ... **وطريق نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى العربية** كأسماء البلدان والنباتات والحيوانات والآلات والأمراض والمآكل

وكان هذا النقل هو الآخر يتم من طريقين : طريق العلماء المعربين للكتب وطريق العامة الذين يسمعون الكلمة الفارسية أو اليونانية فيقلدون نطقها . ولذلك صعب وضع قواعد ثابتة لهذا النوع من الكلمات المنقولة(١) .

وحين قويت اللغة المولدة منذ أواسط القرن الثالث ، انحسر مدّ العربية الفصحى ، وصار تقعراً أن تحتذى لغة البادية احتذاء كاملا .

— ٦ —

وكان انحلال الدولة العباسية إلى دويلات — فى القرن الرابع — بداية نشوء اللهجات الإقليمية التى يتميز بعضها عن بعض ، ومع ذلك ظلت الفصحى ملكة متوجة على عرشها الفوقّ الذى لاينزل إلى أرض الناس . ومن هنا أصيبت بشيء كثير من البعد عن حركة التأثير الحى الذى هو رافد الحياة بالنسبة إلى أية لغة من اللغات .

— ٧ —

وحين انحلت الدولة فى القرن الرابع إلى دويلات ، واستولى السلجوقيون ومن بعدهم على مقاليد الحكم ، جعلوا من اللغة الفارسية منافسا قويا للغة العربية ، فقد صارت الفارسية اللغة الرسمية ، ولغة الأدب والشعر والعلم حتى لقد ألف بها حجة الإسلام الإمام الغزالى وغيره .

ولقد حاول أبو زكريا التبريزى بما وضعه من شروح لغير قليل من دواوين العربية وعيون كتبها ، وما وضعه الحريرى بكتابه (درة الغواص فى أوهام الخواص) وغيرهما أن يعيدوا إلى العربية شبابها الأول ، إلا أن سيل اللغة الدارجة كان أقوى فاستحالت الفصحى إلى ضعف من بعد قوة ، وإلى انحسار بعد انتشار .

---

(١) أنظر ضحى الإسلام — لأحمد أمين الجزء الثانى .

obeikandi.com

(٨)

وحين اكتسح السيل المغولى خلافة بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، كان على العربية أن تواجه مصيرها المحزن ، وأن تمرّ بتجربة المعاناة التاريخية الفادحة فتتحمل أحلك ألوان التّرهل والاكتهال ، لفترة امتدت حتى أواخر القرن التاسع عشر(١) .

(٩)

ومع بداية القرن العشرين استعاد التاريخ اللغوى وجهه الناضر ، وأخذت العربية تزيح من طريقها ركاماً من وراء ركام ، حتى استحالت إلى ماتراها عليه الآن من حيوية ونضارة وتطور واخضرار ، ولعل الاحتكاك بالفكر الأوربى ، وتدفق تيار الترجمة ، وظهور الطباعة والصحافة والمجامع والجامعات وانبعاث الحسّ القومى من رقدته الطويلة .. كانت من وراء عودة الحياة إلى هذه اللغة ، وتجديد شبابها شكلا ومضموناً وحاولا فى جدل الحركة التاريخية المعاصرة .

(١٠)

هذه لمحة خاطفة عن مسيرة اللغة العربية بعامة منذ العصر الجاهلى حتى الآن ، لم نشأ أن نعمق فيها البحث ، أو نوثّق فيها المقولات ، لأننا ندرك جيداً أن حجم مثل هذا العمل إذا قصد إليه الباحث – لايمكن أن يختصر فى هذه المساحة أو يأوى إلى هذه الصفحات الراكضة فى هوامش التاريخ . .

(١١)

فماذا إذن عن (علم فقه اللغة) هذا العلم الذى حاول أن يعطى للغة أساساً فلسفياً وأن يجعل مفرداتها وتراكيبها عناصر نابضة فى بنية حيّة

---

(١) انظر العربية ليوهان فك ترجمة د . عبد الحليم النجار .

فاعلة ؟ ماهي المراحل التاريخية والفكرية التي شهدت أبرز إنجازاته في هذا الصدد أو ذاك ؟

ماهي أهم المؤلفات التي كتبها فيه أولئك الأعلام من علمائنا السالفين ومن هم أولئك الأعلام الذين حملوا عبء هذا العمل العلمي الكبير ؟

لعل أقدم ماوصلنا من دراسات علمائنا العرب في فقه اللغة (مباحث الأصمعي) أبي سعيد عبد الملك بن قريب المتوفى سنة ٢١٥ هـ. عن الاشتقاق في العربية ، وهي محاولات بادئة يمكن أن تعدّ توطئة لظهور فقه اللغة ، ولكنها لايمكن أن تكون فقه اللغة بالمعنى الحقيقي .

ثم ألف (أبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) كتابه : (الخصائص) وتناول فيه قضايا أصـــل اللغة بين التوقيف والتوفيق ، ومقاييس العربية ، واطرادها وشذوذها وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، والاشتقاق الأكبر ، وتركيب اللغات ، واختلاف اللهجات .

ثم ألف (أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) كتابه : (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) . وقد ذهب إلى أن اللغة مزيج من التوقيف والتوفيق كما تناول خصائصها واشتقاقها وقياسها ومترادفها ومجازها واشتراكها ونحتها واختلاف لغاتها ولهجاتها .

ثم كتب (أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) كتابه : (فقه اللغة) وقد ضمنه بعض المباحث اليسيرة التي يمكن أن تُضَافَ إلى فقه اللغة ، كإيراد بعض الألفاظ العربية التي نسبها أئمة اللغة إلى الرومية أو بعض الأسماء القائمة في لغة العرب والفرس على لفظ واحـــد ، أو الأسماء التي تفردت بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب إلى تعريبها أو تركها كما هي . أو الأسماء التي ماتت فارسيتها مع أن عربيتها ماتزال مستعملة محكية .

ولكن كل هذه المباحث لاتشغل من الكتاب سوى خمس عشرة صفحة ، أمّاما عداها فهو عبارة عن أسماء الأشياء والأحياء وصفاتها المتعددة والمتناقضة والمتوافقة .

ثم يؤلف ابن سيده (الحسن على بن إسماعيل الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) كتابه : (المخصص) . وقد تناول فيه نشأة العربية ، وقضايا الترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق وتعريب الألفاظ الأعجمية .

ثم يؤلف (أبو منصور الجواليقى من علماء القرن السادس الهجرى) كتابه : (المعرّب من الكلام الأعجمى) .

ويؤلف (البشبيشى المتوفى سنة ٨٢٠ هـ) كتابه : (التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل) .

ثم يؤلف (جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ) كتابه الجامع : (المزهر فى علوم اللغة وأنواعها) . وقد جمعه من الكتب المتقدمة وزاد عليها ، وهو ألصق هذه المؤلفات جميعها بالمعنى الحقيقى لفقه اللغة ، ويتناول فيه السيوطى قضايا نشأة اللغات ، وتداخلها ، وتوافقها ، والمصنوع ، والفصيح ، والمستعمل ، والمهمل ، والحواشى ، والغريب ، والمعرّب والمولد ، والاشتقاق ، والاشتراك ، والترادف ، والتضاد ، والنحت ، والتصحيف ، والتحريف ، والشوارد ، والنوادر ، وما اختلفت فيه لغة الحجاز ولغة تميم .

ثم يؤلف (شهاب الدين الخفاجى من علماء القرن الحادى عشر) كتابه : (شفاء العليل فيما ورد فى كلام العرب من الدخيل) وقد عنى فيه خاصة بالألفاظ الدخيلة على العربية .

ثم يؤلف (أحمد فارس الشدياق . فى المائة الثالثة عشرة) كتابه : (سحر الليال فى القلب والإبدال) . وقد اتبع فيه طريقة القدامى والفرنجة ،

فحاول إرجاع معانى الكلمات ومعانى تقلباتها إلى أصل واحد تيسيراً على الباحث عن المعانى .

وفى المائة الرابعة عشرة يؤلف (السيد كرافت حسين الهندى) كتابه : (فقه اللسان) .

وتتواتر المؤلفات بعد ذلك شاملة كل مناهج البحث ، ومستغرقة كل جوانب الموضوع ، ويصبح علم (فقـه اللغة) علما محدد الأبعاد والأعماق والاتجاهات ويدّلف المؤلفون من مجرد تأمل الظاهرة اللغوية فى نسقها التاريخى أو الوصفى إلى أبهاء فلسفة اللغة معجماً ومصطلحاً ودلالة واتجاهاً .

ولكن اللغة العربية ماتزال بحاجة إلى جهود كثيرة باذلة ، للكشف عن جوانب الروعة الرائعة التى تكمن فى مصطلحها الكمىّ ، وفى نوعية ماتعطيه على المستوى التعبيرىّ من دخول فى أدغال الظاهرة الإنسانية والوجودية وهى جوانب هائلة بكل المقاييس . .

(١٢)

وإذا كان فقه اللغة علماً يبحث فى نشأة اللغة ، وعلاقاتها بغيرها ، وخصائص أصواتها وأبنية مفرداتها وتراكيبها ، وعناصر لهجاتها ، وتطور دلالاتها ، والعوامل التى أثرت فيها ، والقوانين التى تحكم الصلة بين ألفاظها. فإنّ الغرض من دراسته هو نشأة اللغة ، وحصر كلماتها ومعرفة الأطوار التى مرت بها علاقاتها ، وخصائص أصواتها وأبنيـة مفرداتها وتراكيبها ، وعناصر لهجاتها وما طرأ على العوامل التى أثرت فيها ، والقوانين الحاكمة لها ، دراسة معلّلة ، ومرتبطة فى النهاية بطبيعة القوانين الإنسانية والاجتماعية والحضارية الحاكمة .

ومن هنا .. تبدو حاجة الإنسان إلى اللغة حاجة ضرورية لازبة ، ويمكن أن نتصور الإنسان الأول وهو تائه فى أحراش الوجود ، يغتصب قوته من الأرض ويصارع وحوشها ليعيش ، ويحيا فى عزلة قابضة عن كل ما حوله ومن حوله ، لأن وسيلة الاتصال بمن حوله لم تكن موجودة بعد . . . تحت وطأة هذه الوضعية ، اضطر الإنسان الأول إلى معاضدة أخيه الإنسان ليتمكن الجميع من قهر القوى الطبيعية والوحشية المحيطة وفى ظل هذا (الاجتماع) البادىء تولد نوع من التفاهم ، تدرج من الإشارة إلى الصوت المجرد ، إلى الألفاظ ، إلى الجمل .

فإذا عرفنا أن اللغة كلها ــ منذ البدء وحتى الآن ــ ليست شيئاً سوى رموز تتواضع عليها ، عرفنا إمكان الاجتماع البشرى فى هذه المراحل الباكرة ، وعرفنا كذلك مدى حاجة الإنسان إلى اللغة أداة للتواصل النفسى والفكرى والحيوى ، ثم عرفنا أيضاً كيف أمكن للإنسان بما أودع الله فيه من قوى طبيعية كامنه أن يطور أداته اللغوية وأن يصل بها إلى هذا التطور الحضارى الذى نعيشه الآن .

لقد قلد ، وأشار ، وصوّت ، ولهج بالمفردة ، ثم امتلك الجملة الكاملة ، فأعلن بامتلاكه لها بدء استيلائه على عرش الوجود . ولكن من المؤكد أن بدء دلالة الألفاظ على المعانى لم يزل غيبا محجوباً ، وقصارى مايبذل حوله من آراء إنما هو مجرد اجتهادات .

obeikandl.com

عن نشأة اللغة الإنسانية الأولى

رأى بعض العلماء العرب أن اللغة توقيفية (أى إلهام من الله) واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية وأدلة نقلية ، وواجهوا فى ذلك اعتراضات كثيرة .

ورأى البعض الآخر أن اللغة اصطلاحية أوجدها الإنسان إما عن طريق المواضعة والاصطلاح وإما عن طريق المحاكاة . . واستدلوا على ذلك بأدلة نقلية وأدلة عقلية كذلك . وأيضاً ووُجِهُوا باعتراضات كثيرة .

وسنحاول أن نتتبع ملامح هذا الجدل النظرى ، وأن نعرض أصول النظريات وأسانيدها ، والدفوع التى ووُجِهَتْ بها ، على مستوى العقل والنقل جميعها ، وسنرى أن آراء كثيرة جديرة بالتقدير قد قبلتْ بالفعل فى هذا الصدد ، إيجاباً وسلباً ، إثباتاً ونفياً . . . .

وسنبدأ بعرض آراء علمائنا العرب ، ثم نقفىّ على ذلك بآراء العلماء الغربيين ، آملين أن نعطى – ما أمكن – صورة متكاملة لهذا الجدل المثير .

– ١ –

آراء العلماء العرب

النظرية الأولى : اللغة توقيفية :

قال فريق من العلماء إنّ (اللغة توقيفية) أى من عند الله ، فهو الذى لقّن آدم كل شىء ، وهو الذى هداه إلى المقاطع الصوتية فكوّن الكلمات ، وركّبها ، وربط الحروف والألفاظ بمعانيها ، إما بطريق الوحى ، أو بخلق أصوات فى بعض الأجسام ، أو بعلم ضرورى ... وكان أبو الحسن الأشعرى من المتكلمين ، وأبو الحسين أحمد بن فارس من اللغويين ، على رأس القائلين بهذه النظرية .

واستدل أصحاب هذه النظرية على رأيهم بدليل عقلى ، وآخر نقلىّ ، ولكن أيّاً من الدليلين لم يسلم من معارضة ونقض .

فأما الدليل العقلى : فبرى القائلون به :

١ – أن الدليل على صحة القول بالتوقيف – إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم . ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحا لم يكن أولئك فى الاحتجاج بهم بأولى منّا فى الاحتجاج بنا لو اصطلحنا على لغةِ اليوم ولافرْق . وبهذا قال ابن فارس(١) .

٢ – وأنه لو كانت اللغات اصطلاحية لاحتيج فى التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابة يعود إليه الكلام ، ويلزم إمّا الدور أو التسلسل فى الأوضاع وهو محال . فلا بدّ من الانتهاء إلى التوقيف(٢) ويقول ابن فارس : لم يبلغنا أن قوما من العرب فى زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم .

٣ - وأن الكلام أجل من أن يبدعه الإنسان وكيف يبدعه وهو إنما يفكر عن طريق ألفاظ متخيلة يناجى بها نفسه ، فالفكرة متوقفه على الكلام وإذا كان الطفل لايفكر إلا بعد أن يكلمه أبواه ، فكذلك الإنسان الأول لم يفكرْ إلا بعد أن كلّمه الله .

ويستطرد ابن جنى يقول :

وذلك أنى إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علىّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح

---

(١) انظر : (المزهر) للسيوطى – ج ١ – ص ٩ .

(٢) انظر : (المزهر) للسيوطى – ج ١ – ص ١٨ .

به أمام غلْوَة السِّحرْ . . فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ، ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحة ما وفقوا لتقـدمه منه ولُطف ما أسعدوا به . وفُرِقَ لهم عنه ، وانضاف إلى ذلك وُرُدُ الأخبار المأثورة بأنها من عند الله عز وجلّ ؛ فقوى فى نفسى اعتقادكونها توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحى) . (١)

الردود على الأدلة العقلية :

١ — للرد على الفقرة الأولى ، قيل : إن كلام ابن فارس ، عن اللغة العربية حين شبّت عن الطوق ، وأصبحت لغةَ قراءةٍ وكتابةٍ فنية أيام العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، والبحث هنا ليس عن اللغة العربية فى هذا الطور المتأخر الذى امتلكت فيه اللغة عافيتها الكمية والكيفية ، وإنما البحث يتجه إلى منابع اللغة الأولى التى نطق بها الإنسان الأول ، كيف نشأت ؟ وكيف كانت ؟ وهذه هى التى ما تزال الآراء حولها تتضارب وتتناقض ، حتى لتزعم كل أمة أن لغتها القومية هى أصل كل اللغات ، وقد لا يعجزهم الدليل فى كثير من الأحيان .

ثم إن الإجماع على الاحتجاج بلغة القوم ليس صادراً عن كون اللغة توقيفية أو اصطلاحية ولكنه صادر عن كون اللغة فى هذه الفترة الجاهلية وصدر الإسلام — توحدّت فى اللهجة التى نزل بها القرآن الكريم ، وهى اللهجة القرشية ، ثم عن كون اللغة — فى هذه الفترة كذلك — كانت ما تزال نقية لم يفسدها الاختلاط واللحن ، وهذا هو الفرق بيننا وبينهم .

٢ — وللرد على الفقرة الثانية : يقال بأن الاصطلاح لا يستدعى تقدم اصطلاح آخر فالطفل حين يتعلم اللغة عن أبويه لا يكون عالماً بمعانى الألفاظ ولا بحقائق الاصطلاح ، ولكنه يتعلم عن أبويه بالإشارة إلى

---

(١) أنظر (المزهر) للسيوطى — ج ١ — ص ١٥ .

المدلول ، وربطه دائماً بالدال ، وبتكرار هذه العملية يقرّ فى ذهنه معنى هذا الربط ، والشكل الصوتى — اللغة — الذى يعبر عنه . . كذلك القوم الذين تلقوا اللغة للمرة الأولى ، لقد فهموا بالإشارة والربط والتكرار دون حاجة إلى سابق اصطلاح على لغة مشتركة .

٣ — وللردّ على الفقرة الثالثة : يقال إن الله قادر دائماً على أن يُقْدِرَ واحداً أو جماعة على وضع اللغة عن طريق الاصطلاح ، وقد أقر ابن جنى نفسه هذا المعنى حين قال : (لا ننكر أن يكون الله قد خلق من قبلنا — وإن بعد مداه عنا — من كان ألطف ذهناً وأسرع خواطر ، وأجرأ جناناً) (١) على أن ابن جنى نفسه قال بالاصطلاح اللغوى فى مواضع أخرى سنشير إليها من خلال عرضنا للنظرية الاصطلاحية .

وأما الدليل النقلىّ : فقد استدل الإسلاميون بقوله تعالى :

١ — (وعلم آدم الأسماء كلها) .

٢ — وقوله (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) .

٣ — وقوله : (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) .

الردود على الأدلة النقلية : وقد ردّ العلماء على هذه الأدلة النقلية بما يلى :

١ — يرد على الاستدلال بالآية الأولى : (وعلم آدم الأسماء كلها) . بأن هذه الآية لا يتم الاستدلال بها إلا على أن معنى علّم : وقّف

---

(١) أنظر (المزهر) للسيوطى — ج ١ — ص ١٦ .

ولكن . . وأن يراد بالأسماء الألفاظ والمعانى ومفرداتها ومركباتها . . وأن يراد بها قسيم الأفعال .

ولكن هذه الوجوه التأويلية غير مسلّمة .

فلماذا لا يكون معنى (علم) — كما يقول ابن جنى — أقدره على أن يواضع عليها وهذا المعنى من عند الله سبحانه وتعالى لا محالة ، فإذا كان ذلك محتملا غير مستنكر سقط الاستدلال به .

ويقول الراغب الأصفهانى : وقوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) تعليم الأسماء هو أن جعل له قدرة بها نطق ، ووضع أسماء الأشياء ، وذلك بإلقائه فى روعه وعلى هذا لا يتم ما قالوا لأن المعنى يصير : وأقدر الله آدم على وضع الأسماء فيكون آدم هو الذى وضعها .

ويمكن أن يكون المراد بالأسماء : السمات والخصائص ، كما هو الأصل فى معنى الأسماء لأن تفسير الأسماء بالألفاظ اصطلاح نحوىّ متأخر وإذ كان إطلاقها على الصفات ممكنا فى اللغة ، وجب أن يكون هو المراد لا غيره ، لأن الفضيلة فى معرفة حقائق الأشياء أكبر منها فى معرفة الأسماء .

ولأن التحدى إنما يجوز ويحسن بما يتمكن السامع من مثله ، ولو بقيت الأسماء مرادا بها الألفاظ ، لكان فضل آدم إما لأنه علّم ألفاظاً فرددها وحفظها ، وإما لأنه وضع ألفاظاً للأشياء ولاخفاء فى أنه كان يمكن للملائكة — لو علموا هذه الألفاظ ورددوها — أن يحفظوها كما أنه لا يصح فى العقول أن يفضّل شخص بسبب معرفته بعد التعليم على آخر لم يعرف لأنه لم يتعلم . . كذلك ليس مما يتمايز به آدم هذا الامتياز و يفضل به على الملائكة أن يضع أسامى الأشياء ، ولهذا كان حمل الأسماء على الألفاظ فقط غير سديد .

٢ – ويرد على الاستدلال بالآية الثانية : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) . بأنه يحتمل أن يكون المراد بالألسنة الجوارح المخصوصة ، وباختلافها أن ينشئها الله تعالى مختلفة فى الشكل والهيئة والتركيب. فتختلف نغماتها وأصواتها حتى إنه لا يشتبه صوتان من نفسين هما أخوان كما يقول الطبرى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة .

كما أن إطلاق الألسنة على اللغة مجاز ، فلم لا تطلق الألسنة مجازاً على القدرات والتصورات والإدراكات .

٣ – ويرد على الاستدلال بالآية الثالثة : (إنْ هى إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) . بأن وجه الاستدلال بهذه الآية أن الله ذم الكفار على وضع أسماء ليست توقيفية . . مع أنه يمكن أن يقال إن مدار الذم ليس مجرد وضع الأسماء غير التوقيفية ، بل هو إطلاق هذه الأسماء على الأصنام مع اعتقادهم أنها آلهة أما مجرد إطلاق الأسماء وحده فلا ذم عليه . بدليل أن القرآن الكريم سمى أنواعا من الأصنام فقال تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) . وقال : (ويغوث ويعوق ونسرا)(١) .

* * *

هذه أدلة الإسلاميين ، وهذا هو مجمل الردّ عليها .. أما غير الإسلاميين فقد دفعهم تحيز المسلمين للغتهم ، ومحاولتهم رد أصل اللغات إلى العربية لغة القرآن والدين . . إلى لون آخر من الجموح فى الطريق المقابلة ، وهى طريق ردّ اللغات إلى كتابهم المقدس (العبرية) وقد جدّ آباء الكنيسة فى هذا الصدد مستدلين بما ورد فى سفر التكوين : (والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول . وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى

---

(١) انظر : (المزهر) للسيوطى – ج – ص ١٧ وما بعدها .

كيف يسميها ، وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الإنسان، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول(١) .

الرد على هذا الدليل :

ويمكن الردّ على هذا الدليل بأنه دليل عليهم وليس لهم ، لأن آدم هنا هو الذى سمى الأشياء « ووضع » الأسماء . . . ثم إن هذه الآيات التى سبقت لم تتعرض لنشأة اللغة ككل بأسمائها وصفاتها وأفعالها وحروفها . . وكل ما تعرضت له هو نوع من الأسماء دون سائر الأنواع من أسماء الجمادات والمعانى والأفعال والحروف .

الرد الإجمالى على النظرية التوقيفية :

ويمكن الرد إجمالا على النظرية التوقيفية فى نشأة اللغة :

١ – بأن اللغة لو كانت توقيفية لامتلكت عنصر الثبات البنائى والدلالىّ والمعجمىّ ، وهذا غير ملاحظ ولا ملموس . . وما تزال اللغة تستقبل كل يوم مستحدثات فى الألفاظ والتراكيب والدلالات .

٢ – وأن اللغة لو كانت توقيفية لخلت من كثير من العيوب التى فيها، وهذه العيوب ما تزال قضية مطروحة على مستوى الشكل والمضمون فى كل لغات العالم ، التى تبحث باستمرارية جادة عن رأب هذه الصدوع فى بناء اللغة وفحواها .

٣ – وأن اللغة لو كانت توقيفية لولدت كاملة – منذ البدء – ولكن المشاهد أن اللغة ككل كائن حىّ على وجه الأرض ما تزال تكدح فى سبيلها إلى الكمال البعيد المنشود .

النظرية الثانية : (اللغة اصطلاحية) :

قال العلماء إن (**اللغة اصطلاحية**) أوجدها الإنسان عن **طريق المواضعة**

---

(١) سفر التكوين – الإصحاح الثانى – الآية ١٩ وما يليها .

(وهذا رأى فريق من الاصطلاحيين) أو عن طريق المحاكاة (وهذا رأى فريق آخر) .

وقد وقف على رأس القائلين بالمواضعة أبو هاشم الجبائى المعتزلى . . وأبو على الفارسى وأبو الحسن الأخفش فى أحد قوليهما .

ووقف على رأس القائلين بالمحاكاة بعض علماء العرب فى العصور الوسطى وطائفة كبيرة من العلماء الأوربيين فى القرن التاسع عشر .

طريق المواضعة : وقد شرح ابن جنى معنى المواضعة فى قوله ملخصاً : قالوا وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة أو أكثر فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المحيطة بهم وتكون معلومة لديهم ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز عن غيره وأغنى عن إحضاره ، وقد يحتاجون إلى بيان مالا يمكن إحضاره ولا إدناؤه كالفانى واجتماع الضدين على المحل الواحد وكيف يكون ذلك لو جاز ، فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومأوا إليه . . وقالوا : إنسان . . إنسان . . إنسان . . فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق . . وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد . . عين . . رأس . . قدم . . ونحو ذلك . فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معنيّها ، وهكذا فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف .

ثم لك بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول : الذى اسمه إنسان فليجعل مكانه : (مَرْد) أى إنسان بالفارسية . والذى اسمه رأس فليجعل مكانه : (سِرْ) أى رأس . وعلى هذا بقية الكلام . وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة من الرومية والزنجية وغيرها(١) .

---

(١) انظر : (المزهر) للسيوطى – ج ١ – ص ١٢ – ١٣ .

هذا هو طريق المواضعة كما يراه واحد من علمائنا الكبار ، الذين كانت لهم بصيرة نافذة فى دراسة اللغة ، وإذا كان هذا الطريق ليس كل طرق المواضعة ، فإنه يمثل لها تمثيلا دقيقا ، ويعطى عن جهود علمائنا العرب فى هذا الصدد صورة مقاربة إن لم تكن دقيقة تماما .

أدلة القائلين بالمواضعة . واستدل علماء اللغة على المواضعة بقولهم :

١ — إن أول اللغة لابد أن يكون متواضعا عليه والمواضعة لابد معها من الإيماء والإشارة بالجارحة نحو الموماً إليه والمشار نحوه ، والله سبحانه منزه عن الجارحة فلا يجوز أن يوصف بأنه واضع أحداً على شىء وإذن فالإنسان هو واضع اللغة الأولى .

أما غير اللغة الأولى فيجوز أن تكون من الله أو من الإنسان لأنها لا تحتاج إلى مواضعة ، ولاتستلزم إيماء ولا إشارة بالجارحة ، يقول ابن جنى : وجواز هذا منه سبحانه كجوازه من عباده .

٢ — لو لم تكن اللغة مواضعة ، لكانت توقيفية تستلزم ضرورة وجود واسطة بين الله والإنسان لاستحالة أن يخاطب الله البشر مشافهة (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فإذا كان النبى هو الواسطة بين الله والبشر ، فإن معنى ذلك أن وجود هذا النبى سابق على وجود اللغة ، وهذا باطل لقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه) فاللغة سابقة على البعثة وليس النقيض .

الردود على نظرية المواضعة : وقد ردّ على هذه النظرية بما يلى :

١ — يتوقف التواضع على لغة ما ، على أصوات لغوية : فهل كان لأولئك الحكماء الذين واضعوا على اللغة أصوات لغوية قبل الوضع ؟ وإذا كانت لهم فهى التى نبحث عنها لا ما تواضعوا عليه . وإن لم تكن لهم لغة كاملة أو حتى قريبة من الكمال فكيف استطاعوا أن يضعوا جميع اللغات ، وهى ماهى

ضخامة وتنوعاً ؟ وكيف تسنى لهم أن يعلّموها البشر قاطبة على تنوع هؤلاء البشر فى ما لايحصى من اللغات واللهجات والكلمات والعبارات ؟

٢ - هؤلاء الحكماء الذين نصبوا من أنفسهم معلمين للغة ودعاة لها . كيف تسنّى لهم الاتصال بغيرهم من الأمم والشعوب ، مع بعد الشقة ، وانعدام أو حتى ضعف وسائل الانتقال فى هذا الزمن السحيق ؟

٣ - هذه اللغة الرائعة ، بهذه الصورة المعجزة ، هل يمكن أن تكون قد ولدت هكذا تامة النضج أو تكاد ، فى فكر هذا الإنسان ، فى تلك العصور الضاربة فى أعماق السذاجة والقدم ؟

* * *

طريق المحاكاة : يرى أصحاب هذا الرأى أن الإنسان وجد وسط عالم ملىء بقوى الطبيعة الصائتة والصامتة ، يتلفت من حوله ، فيرى ويسمع من تفاعل القوى الطبيعية أشياء كهدير الرعد ، وسقوط الأمطار ، وتصادم الأجسام ... ويرى ويسمع من تعاقب الانفعالات على نفس الكائن الحىّ أشياء كصهيل الخيل ، وعواء الكلب ، ونهيق الحمار ، وهديل الحمام .

ومن حكاية هذه الأصوات على اختلاف مظاهرها ومصادرها ، اقتبس الإنسان لغته الأولى ، فكانت فى البدء تقليداً لصوت معيّن ليدل به على مصدر هذا الصوت أو ما يتصل به . . ثم تدرجت اللغة بالقلب والإبدال والنحت إلى أن صارت ألفاظاً . . ومازالت تتدرج حتى صارت ما هى الآن تركيباً وتعبيراً .

ويرى العلماء أن اللغة وضعت فى بادىء الأمر على مقطع واحد مكون من حرف واحد أو حرفين متحرك فساكن ، ثم ضعّف الثانى فكان الثلاثى أو ضوعف المقطع فكان الرباعى .

أدلة القائلين بالمحاكاة :

ويستدل أصحاب هذا الرأى بنشأة الطفل . . فهو فى البداية يعبر بالصوت عن مصدر هذا الصوت ومايتّصل به..وقد يتجاوز ذلك فيعبر بالصوت الواحد عن الصورة الذهنية التى انطبعت فى ذهنه عن هذا المصدر ، فإن كانت حسنة عبر عنها بشىء يدل على الاستحسان وإن كانت سيئة عبر عنها بما يدل على الاستقباح . . وكثيراً ما يصحب هذا التعبير الساذج كثير من الإشارة التى ما تلبث أن تتوارى حين ينتقل الطفل من طور المحاكاة إلى طور الوعى .

وقد قال بهذا الرأى ابن جنى وغيره من علماء العرب . . وقال به طائفة كبيرة من علماء الغرب . . يقول ابن جنى : (وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح . وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل(١)) .

الردود على القول بالمحاكاة : وقد رد على القول بالمحاكاة على النحو التالى :

١ـ تسخيف فكرة أن يكون الترتيب التاريخى لنشأة اللغات بادئاً بالحيوان والجماد ومنتهيا بالإنسان كمقلد لهذين النوعين .

٢ ـ رفض القول بأن ما صدر عن بعض المخلوقات بلا معنى ، وضعه الإنسان ليعنى شيئا محددا ، لأن ذلك لو صح فسيكون معناه أن مالا معنى له فى نشأته يصير حقيقيا فى فم المقلد وفى عقل السامع .

---

(١) أنظر : (المزهر) للسيوطى ـ ج ١ ـ ص ١٤ ـ ١٥ .

٣ – ربما كانت نظرية المحاكاة تكون صحيحة لو أننا كنا نتعامل مع الحيوانات والطيور ولكن الواقع بعيد عن هذه الفرضية البعيدة(١) .

– ٢ –

آراء علماء الغرب

يمكن التركيز فى هذا المجال على نظريات أربع فى تفسير نشأة اللغة الإنسانية وهى نظريات تمثل جهود اللغويين منذ عصر النهضة حتى الآن . . هذه النظريات هى :

١ – نظرية التقليد الصوتى : ٢ – نظرية أصوات التعجب .

٣ – نظرية الربط الطبيعى بين الصوت والمعنى .

٤ – نظرية الأصوات الجماعية .

١ – **نظرية التقليد الصوتى** : تقول هذه النظرية بتقليد الإنسان للأصوات الطبيعية كالرعد ، وتقليد أصوات الحيوانات كذلك .

وينتقد (رينان) هذه النظرية ، لأننا نضع بها الإنسان فى مرتبة تالية لمرتبة الحيوان حيث يقلده ويحاكيه .

ويدفع (جسبرسن) هذا النقد بأن هذه الأصوات عند الحيوان لاتعنى شيئا غير مجرد كونها أصواتا . . أما عند الإنسان فهى ذات دلالات محددة ، واستعمالها على هذا النحو مقصور عليه .

٢ – **نظرية أصوات التعجب** : وتقول هذه النظرية بأن الإنسان بمحض فطرته يندفع إلى إرسال أصوات يعبر بها عما يتخالجه من الفرح

---

(١) اعتمدنا فى هذا العرض لأصول النظريتين ولأدلتهما وللردود الواردة عليها ، الأدلة على كتب فقه اللغة التى تكاد تتشابه فى هذا الصدد غير بعض التقديم والتأخير والإفاضة والاجتزاء حتى ليمكن أن يقال بأننا هنا مجرد عارضين للرأى ونقيضه وأكثر ما اعتمدنا عليه هو كتاب (المزهر) للسيوطى فقد عرض القضية من خلال منهج استقرائى دقيق . أنظر : ج ١ ص ٨ وما بعدها .

والخوف والتعجب وغيرها من الانفعالات فهو حين يعطس أو يسعل أو يضحك أو يبكي ، يستعمل أصواتا ترسلها فطرته . . وترى هذه النظرية أن مثل هذه الأصوات كانت البدء الأول للغة ، ثم لم يلبث هذا البدء أن تنوع وتعدد وتركب حتى صار إلى ما هو الآن .

ويعترض « جسبرسن » بأن هذه الأصوات كما نراها الآن — لا تمثل أي نشاط لغوي ، بل هي مجرد نشاط صوتي لا يمت إلى سياق الحديث بأية صلة . . كما أنها لا تخضع للتقعيد اللغوي مما يباعد بينها وبين فكرة كونها أصلا للغة .

٣ — **نظرية الربط الطبيعي بين الصوت والمعنى** : وتقول هذه النظرية إن هناك ارتباطا طبيعيا بين الكلمة وما تدل عليه ، ومن هنا فإن العالم الخارجي بكل مظاهره ينعكس في سيكلوجية الإنسان بما يقابله من أصوات يرتبط بها ارتباطا طبيعيا .

واعترض على هذه النظرية بأن الحروف في اللغات مختلفة ، فكيف يحدث العالم الخارجي تأثيرات مختلفة باختلاف اللغات مع أن المفروض أن يعكس تأثيراً واحداً على كل المستويات فالحجر كمظهر خارجي لابد أن يجد صدى في النفس مواثما للحاء والجيم والراء . وليس كذلك الحجر في الإنجليزية ، فحروفه فيها stone ، ولا يخفى ما بين الأصوات هنا والأصوات هناك من تباين ملحوظ .

٤ — **نظرية الأصوات الجماعية** : وتقول هذه النظرية إن التنفس الشديد يتطلب قيام الإنسان بمجهود عضلي ويجعل الهواء المار بالحنجرة يحرك الأوتار الصوتية ، فتنتج أصواتا مختلفة ، وعندما يزاول عدد من الناس عملا شاقا يحدث هذا بشكل جماعي ، فيقولون مثلاً : « هيلاهوب » ومن الممكن أن تكون هذه الحقيقية أصلا لنشأة اللغة الإنسانية . ويرى جسبرسن : أن هذه النظريات جميعاً لا تفسر سوى جزئيات من النشاط

اللغوى ولا بأس من أن نعترف بها جميعاً ، على أن لا نجعل إحداها ، أو نجعلها جميعاً المصدر الوحيد الذى نشأت عنه اللغة الإنسانية ولو أردنا معرفة أصل اللغة لتحتم علينا أن ندرس أمورا ثلاثة هى :

١ ــ لغة الطفل ٢ ــ لغة القبائل البدائية .

٣ ــ تاريخ اللغات . . . .(١) .

هذه أهم النظريات التى طرحها الفكر العربى والفكر الغربى فى نشأة اللغة وليس معنى ذلك أن قضية البحث فى نشأة اللغات تقف عند هذا الحد من التاريخ . فلقد طرحت القضية نفسها على فلاسفة اليونان القدامى ، فذهب (هيراكليت) ٥٨٠ ــ ٥٤٠ ق . م إلى القول بأن اللغة وحى وإلهام ، ووجد فى القرن الرابع الميلادى من يدافع عن هذا الرأى على الرغم من معارضة بعض علماء الكنيسة . . . كذلك ذهب (ديموكريت) من فلاسفة اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، إلى القول بأن اللغة اصطلاح(٢) وهكذا نجد أن القضية ليست وليدة اليوم والأمس . وليست كذلك من السهولة بحيث يقطع الباحث فيها برأى جازم ويقينى . . المهم أننا قد استعرضنا أهم ملامح القضية ووقفنا على الخطوط العريضة فى جدلها المؤيد والمعارض . .

ونرجو أن نكون قد أضأنا حتى بقدر ما نستطيع وليس بقدر ما نأمل .

---

(١) انظر اللغة والتطور / عبد الرحمن أيوب ص ٢٣ وما بعدها .

(٢) انظر الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ــ جرجى زيدان ــ هامش ص ١٣١ ــ ١٣٢ تعليق دكتور / مراد كامل .

اللغات الانسانية (١)

(١)

قسّم العلماء أشهر اللغات الإنسانية إلى مجموعتين هامتين :

١ ــ الفصيلة الهندية ــ الأوربية .

٢ ــ الفصيلة الحامية ــ السامية .

وقد تنبه العلماء إلى ما بين اللغات المندرجة تحت هاتين الفصيلتين من صلات وصفات قريبة ومشتركة . . ولكن (ماكس مولر) جاء بتقسيم ثلاثى لا ثنائى للغات فأدخل طائفة من اللغات الآسيوية والأوربية التى لا تندرج تحت الفصيلتين السابقتين كقسم ثالث ، وأطلق عليهـا اسماً اصطلاحياً ــ نظراً لتنوعها وتباعدها ــ هو : الفصيلة الطورانية .

(أ) **الفصيلة الهندية ــ الأوربية** : . . . (وهى أكثر اللغات الإنسانية انتشاراً ، والشعوب الناطقة بها جليلة الأثر فى الحضارة الإنسانية الحديثة ، ومن العسير تحديد موطنها الأصلى ؛ فمن ذاهب إلى نشأتها فى آسية الوسطى بمنطقة التركستان . ومن قائل بنشأتها فى المناطق الروسية بأوربة الشرقية ، ومن زاعم أنها فى مناطق بحر البلطيق وهى تشتمل على ثمان من طوائف اللغات :

١ ــ اللغات الآرية ، بفرعيها : الهندى والإيرانى .

٢ ــ اللغات اليونانية ، وتشتمل اليونانية القديمة ، واليونانية الحديثة

---

(١) إعتمدنا فى هذا الموضوع بشكل مكثف على كتـاب : (دراسات فى فقه اللغة) للدكتور صبحى الصالح ــ و (فقه اللغة) للدكتور على عبد الواحد وافى .

التى قامت على أنقاض القديمة فى القرون السابقة للميلاد ، ولغة اليونان فى العصر الحديث .

٣ ــ اللغات الإيطالية ، وأهم فروعها اللاتينية التى تشعبت منها الفرنسية والأسبانية والإيطالية والبرتغالية ولغة رُومانيّة .

٤ ــ اللغات الجرمانية ، وأهمها شعبتان : شعبة اللغات الجرمانية الغربية . وفيها الإنجليزية ــ السكسونية ، والإنجليزية الحديثة ، والهولندية والألمانية ، وشعبة اللغات الجرمانية الشمالية ، وهى الدانيمرك والسويد والنرويج .

٥ ــ اللغات السلافية ، وهى شعبتان : صقلية ، وبلطيقية . فمن الصقلية الروسية والتشيكية والبولونية والبلغارية الحديثة ــ ومن البلطيقية . الليتوانية والبروسية للقديمة .

٦ ــ اللغات الأرمنية .

٧ ــ اللغات الألبانية .

٨ ــ اللغات الكلتيّة التى كان ينطق بها شعوب الكلت ، وقد غلبتها الآن اللغات ــ الانجليزية والفرنسية والأسبانية . وإن بقيت ظواهر منها فى لهجات ايرلندا ومنطقة البريتون غربى فرنسة) (١) .

(ب) الفصيلة الحامية ــ السامية : . . . (وليست المناطق التى تشغلها هذه الفصيلة شديدة الاتساع كالمناطق التى تشغلها الفصيلة الأولى ، (الهندية ــ الأوربية) فلا يعدو ما تشغله بلادَ العرب وشمالَ إفريقية وجزءاً من شرق إفريقية ، غير أن مناطقها تكاد تشكل منطقة واحدة

---

(١) د : صبحى الصالح ــ دراسات فى فقه اللغة ص ٤٢ ــ ٤٣ .

متماسكة الأجزاء ، مستقلة ، ليس فيها عنصر دخيل ، وتلك مزيّة كبيرة من مزاياها . وهى ذات مجموعتين :

(أ) مجموعة اللغات الحامية ، وفيها المصرية والبربرية والكوشيتية وقد اصطلح على إدخالها فى مجموعة واحدة ، مع أن صلات القرابة بينها ضعيفة ، ولذلك يعد بعضهم كل فرع منها مستقلا برأسه على حدة . . واللغة المصرية تشمل المصرية القديمة والقبطية . أما البربرية فهى لغة السكان الأصليين لشمال إفريقية « تونس ومراكش والجزائر وطرابلس والصحراء والجزر المتاخمة لها » . وأهمها اللغة القبيلية والتماشكية وهى لغة قبائل التوارج « الطوارق » وأما الكوشيتية فهى لغة السكان الأصليين للقسم الشرقى من إفريقية وبها يتكلم نحو ثلث سكان الحبشة . وهنالك مناطق فى الحبشة تتكلم بلغة سامية » (٢)

« ب » مجموعة اللغات السامية وسنتكلم عن هذه المجموعة السامية بتفصيل أكثر فيما يلى لأن لغتنا العربية تفرعت منها :

فصائل اللغات الإنسانية الأخرى : أما فصائل اللغات الإنسانية الأخرى فمن أهمها :

١ — فصيلة اللغات الطورانية ؛ كالتركية والمغولية والمنشورية .

٢ — فصيلة اللغات اليابانية .

٣ — فصيلة اللغات الصينية ؛ التبيتية « ومنها لغة سيام » .

٤ — فصيلة اللغات الكورية « لسكان شبه جزيرة كورية »

٥ — فصيلة اللغات القوقازية « ويستثنى منها اللغات القوقازية السامية والهندية الأوربية » .

---

(١) د : صبحى الصالح — دراسات فى فقه اللغة ص ٤٣ — ٤٤

٦ — لغات الهنود الحمر فى أمريكا ، وهم سكانها الأصليون .

٧ — لغات السودان وغانة :

٨ — اللغات الملايوية البولينزية ، ومنها الأندونيسية والميلانيزية وجزر سليمان ، وسانت كروزوتوريس(١).

(٢)

وهناك طريقة أخرى لتقسيم اللغات إلى فصائل ، فى ضوء قوانين التطور والارتقاء المتعلقة بقواعد الصرف والتنظيم ، وليس فى ضوء القرابة اللغوية وأشهرها نظرية (شليجل) التى ترى أن اللغات ثلاث فصائل :

١ — اللغات التحليلية : وهى المتصرفة التى تتغير أبنيتها بتغير معانيها ، وتحلل أجزاؤها المترابطة بروابط تدل على علاقاتها ، ومن هذه اللغات السامية ، والعربية فى طليعتها وأكثر اللغات الهندية الأوربية .

٢ — اللغات الإلصاقية : وهى لغات وصلية تمتاز بالسوابق واللواحق التى تربط بالأصل فتغير معناه وعلاقاته بما عداه من أجزاء التركيب . ومنها اليابانية والتركية .

٣ — اللغات العازلة : وهى غير المتصرفة فبنية الكلمة فيها لا تتغير ، ولا تلتصق بأصولها زوائد حرفية ، وليس بين أجزاء تراكيبها روابط وصلات ، ومنها الصينية وكثير من اللغات البدائية ... ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللغات نشأت عازلة .. ثم تطورت إلى الإلصاقية ثم تطورت إلى التحليلية .(٢)

---

(١) أنظر : دراسات فى فقه اللغة د . صبحى الصالح ص ٤٤ .

(٢) أنظر : » » » » » » ص ٤٥ — ٤٦ .

obeikandi.com

(٣)

بقى أن نتحدث عن تاريخ اللغات السامية . . وخصائصها . . حديثاً يعطى مجرد فكرة علمية لا تغنى بالطبع عن استيفاء النظر إلى القضية فى مظانها الحقيقية والأصيلة:

والساميون : يطلق الآن على الشعوب الآرامية والفينيقية والعبرية والعربية واليمنية والبابلية – الآشورية ، وما انحدر من هذه الشعوب .

(ويطلقون اسم اللغات السامية على لغات هذه الأمم وما تفرع منها ؛ وعلى بعض لغات أخرى ظهر لهم انتماؤها إلى الفصيلة نفسها التى تنتمى إليها هذه اللغات فمدلولها يشمل اللغات الأكادية « الآشورية – البابلية » والآرامية والكنعانية و الفينيقية والعبرية » والعربية واليمنية القديمة والحبشية . . وأول من استخدم هذا الوصف فى إطلاقه على هذه اللغات العالمان الألمانيان « شلوتزو وايكهورن » فى أواخر القرن الثامن عشر . ولوضوح الشبه بين أفراد هذه الفصيلة فطن الباحثون منذ عصور سحيقة إلى صلات القرابة التى تربطها بعضها ببعض . فتشابه اللغتين العبرية والآرامية قد بلغ درجة لا تخفى معها قرابتهما حتى على أقل الناس إلماما بهذه الشئون ، ولذلك فطن كثير من قدامى الباحثين إلى انتمائهما إلى فصيلة واحدة . . وتشابه اللغتين العبرية والعربية ، وإن لم يصل إلى الدرجة السابقة ، قد ظهر للباحثين منذ القرن العاشر الميلادى . ففى هذا القرن أدرك كثير من علماء اليهود وجود القرابة بين هاتين اللغتين وفى القرن السابع عشر اهتدى العلماء فى ضوء دراستهم للغة الكنيسة الحبشية إلى قرابة هذه اللغة باللغة العربية . ولذلك يمكن القول إنه لم ينتصف القرن السابع عشر حتى تكونت لدى المستشرقين فكرة واضحة عن صلات القرابة بين معظم أفراد الفصيلة السامية ، وذلك سابق كثيراً للعصر الذى اهتدى فيه Bopp إلى صلات القرابة . التى تربط اللغات الأوربية بعضها ببعض والتى تربطها باللغات الهندية – الإيرانية وقد كملت هذه الفكرة وازدادت وضوحاً فى القرن التاسع عشر . ففى هذا القرن كشف العلماء الخط المسمارى وحلوا

obeikandi.com

الآثار الآشورية المدونة به ، كما كشفوا كثيراً من الوثائق المدونة باللغات الفينيقية واليمنية القديمة ، وفى ضوء هذه الآثار ظهرت صلات القرابة الوثيقة بين هذه اللغات وبقية اللغات السامية ، وبذلك كملت مجموعة اللغات السامية ، وحل كثير من المشكلات العلمية المتعلقة بنشأتها وتطورها وانشعابها بعضها من بعض ، وتكونت مادة غزيرة للبحث والموازنة ، وفى هذا القرن عكف بعض العلماء على دراسة اللهجات العامية المتفرعة عن هذه اللغات — فكان لدراستهم هذه أجل أثر فى نهضة هذه البحوث (١) .

أما عن أهم خصائص اللغات السامية فيكفى هنا أن نومئ إلى ذلك مجرد إيماء :

١ — يتألف الأصل السامى — فى الغالب — من ثلاثة أصوات ساكنة (أى غير لينة) مختلفة (ق ت ل . ض رب . ر ج ع) :

ولكن لكل وجه من هذه الوجوه شواذ :

(أ) فبعض الأصول السامية يتألف من صوتين فقط ، كالحروف أو بعضها : (عن . قد . بل . .) والضمائر : (هو . هم : .) وأسماء الإشارة والموصول والشرط : (ذا . مَنْ . .) وبعض أسماء الذوات : (يد . دم : .) .

وهناك أفعال لا يبقى منها إلا حرفان فى معظم وجوه تصرفها : (قلت . نلت : . .) وهذا يدل على أن المعنى يتوقف فى مثل هذه الأفعال على صوتين فقط .

وهناك أفعال أخرى يتعلق المعنى فيها بصوتين فقط ، أما الثالث فيوجه المعنى العام ويحدده ، ففى الأفعال : (قرى . قرم . قرض . قرج : قرق . قرز) يتأدى المعنى وهو هنا التفرقة — بالحرفين : (ق . ر) لأنهما يمثلان صوت الفعل ، أى ما يحدثه من صوت عند وقوعه ، أما الحرف الثالث فيشار به فحسب إلى نوع هذه التفرقة .

---

(١) د . على عبد الواحد وافى — فقه اللغة من ص ٣ — ٤ .

(ب) وبعض هذه الأصول السامية يتألف من صوتين ساكنين ، وصوت لين أو نصف لين : (قال . وعد . .)

(ج) وبعضها يتألف من صوتين ساكنين مضعف ثانيهما : (تمّ . ردّ . .)

أما الأصول الرباعية أو التي تبدو رباعية الأصول — في العربية والعبرية — فهي متفرعة عن أصول ثلاثية ، فـ (دحرج) مردود إلى (درج) أو (دحر) لما فيهما من معنى الإبعاد والدفع . وإن كان الصرفيون يعدونها أصولا بكاملها .

٢ — لا تكاد توجد من اللغات السامية كلمات لها أكثر من أصل واحد ، في حين أن هذا يوجد بكثرة في اللغات الهندية — الأوروبية ، وخاصة الحديث منها .

٣ — للأصوات الساكنة (غير اللينة) في اللغات السامية أهمية تتمثل في كون المعنى الأساسي للكلمة يشار إليه بها غالباً . . ثم هي تنال من عناية المتكلم قدراً أكبر . ولذلك يتضح جرسها وتظهر في السمع أكثر من الأصوات اللينة . ثم إن هذه العناية بدت ليس في النطق فحسب ، وإنما في الرسم كذلك .

٤ — للفعل في معظم اللغات السامية زمنان . فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (مضارع للحال أو الاستقبال أو الأمر) .

٥ — يحدث في الغالب تأنيث الاسم والصفة في اللغات السامية والحامية بإضافة تاء إلى المذكر .

٦ — تتشابه اللغات السامية في كثير من المفردات وخاصة الدالة على أعضاء الجسم والضمائر ، وصلة القرابة ، والعدد ، وبعض الأفعال ، ومرافق الحياة الشائعة في الأمم السامية (١)

---

(١) انظر : فقه اللغة د / علي عبد الواحد وافي ص ١٢ وما بعدها .

obeikandl.com

مناسبة الحروف العربية لمعانيها

(١)

لاحظ علماؤنا القدامى ما فى العربية من مناسبة حروفها لمعانيها ، كما لاحظوا ما فى الحرف العربى من القيمة التعبيرية الموحية ، بحيث يعبر كل حرف عن غرض ، وإذن فالكلمة مجموعة من الأصوات الدالة المعبرة من حيث هى حروف يستقل كل حرف منها بإحداث صوت معين . . وينسحب هذا على الحرف كقيمة صوتية مستقلة ، كما ينسحب على الكلمة كصوت ثنائى ، أو ثنائى ألحق به حرف أو أكثر ، أو ثلاثى مجرد ومزيد ، أو رباعى منحوت ، أو خماسى أو سداسى مشتق أو مقيس (١) .

ففى الحرف : يتم التناسب فى الحرف الواحد — وهو جزء من كلمة — بينه وبين مدلوله بوقوع هذا الحرف على صوت معين ، وإيحائه بالمعنى المناسب ، سواء كان فى أول اللفظ أم فى وسطه أم فى آخره .

(٢)

فما وقع فى أول الكلمة : صعد وسعد ، فجعلوا الصاد ، لأنها أقوى لما فيه أثر مشاهد يرى . وهو الصعود فى الجبل والحائط . ونحو ذلك ، وجعلوا السين ، لضعفها لما لا يظهر ولا يشاهد حسا . إلا أنه مع ذلك فيه صعود الجد ، لا صعود الجسم . . فجعلوا الصاد لقوتها فيما يشاهد من الأفعال المعالجة المتجشمة وجعلوا السين لضعفها فيما تعرفه النفس وإن لم تره العين (٢) ومن ذلك قولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ

---

(١) أنظر : (دراسات فى فقه اللغة) د / صبحى الصالح ص ١٤٢ وأنظر كذلك (المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى) د / زكى نجيب محمود ص ٢٢٠ — ٤٢٧ . ففيه تحليل قيم لآراء ابن جنى فى اللغة . ويرجع أساسا إلى كتاب (المزهر) للسيوطى . فقد رجع اليه ونقل عنه كل الذين كتبوا فى هذا الموضوع من المحدثين .

(٢) الخصائص لابن جنى — ١/٥٥٢

والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب اليابس ، نحو : قضمت الدابة شعيرها (١) .

ومن ذلك أيضاً : سدّ وصدّ ، فالسدّ دون الصدّ ، لأن السدّ للباب يسدّ والمنظرة ونحوها . والصدّ جانب الجبل والوادى والشعب ، وهذا أقوى من السدّ الذى قد يكون لثقب الكوز ورأس القارورة ونحو ذلك (٢) .

(٣)

ومما وقع فى وسط الكلمة : التاء ، والطاء ، والدال . فى تركيب (ق تّ ر) و (ق طّ ر) و (ق دّ ر) فالتاء خافية مستقلة ، والطاء سامية متصعدة ، فاستعملتا لتعاديهما فى الطرفين ؛ كقولهم : قتر الشىء وقطره . والدال بينهما ليس لها صعود الطاء ولا نزول التاء . فكانت لذلك واسطة بينهما ، فعبر بها عن معظم الأمر ومقابلته فقيل : قدْرُ الشىء لجُماعه ومحز نجمه (٣) .

ومن ذلك قولهم : الوسيلة والوصيلة ، والصاد أقوى صوتاً من السين ، لما فيها من الاستعلاء ، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة ، وذلك أن التوسل ليس له عصمة الوصل والصلة بل الصلة أصلها من اتصال الشىء بالشىء وممارسته له ، وكونه فى أكثر الأحوال بعضاً له ، كاتصال أعضاء الإنسان وهى أبعاضه ونحو ذلك ، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءاً أو كالجزء من المتوسل إليه ، وهذا واضح ، فجعلوا الصاد لقوتها ، للمعنى الأقوى ، والسين ، لضعفها ، للمعنى الأضعف (٤) .

---

(١) الخصائص لابن جنى ١ – ٥٤٩

(٢) الخصائص لابن جنى ١ – ٥٥٣

(٣) الخصائص لابن جنى ١ – ٥٥٤

(٤) الخصائص لابن جنى – ١/ ٥٥٢ .

(٤)

ومما وقع فى آخر الكلمة : النضح والنضخ ، فالنضحُ للماء ونحوه ، والنضخ أقوى من النضح ، قال الله سبحانه : (فيهما عينان نضاختان) ، فجعلوا الخاء لرقتها للماء الضعيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه . .

ومن ذلك قولهم قرت الدم ، وقرد الشيء وتقرد ، وقرط تقرط ، فالتاء أخفت الثلاثة : فاستعملوها فى الدم إذا جفّ ، لأنه قصد ومستخف فى الحس عن القرد ، الذى هو النبات فى الأرض ونحوها ، وجعلوا الطاء وهى أعلى الثلاثة صوتاً (للقرط) الذى يسمع .

ومن ذلك قولهم : الخذا فى الأذن ، والخذاء والاستخذاء فى الذل ، فجعلوا الواو فى الخذا لأنها دون الهمزة صوتاً ، للمعنى الأضعف ، وذلك أن استرخاء الأذن من العيوب التى يسب بها ، ويتناهى فى استقباحها وأما الذل فهو من أقبح العيوب وأذهبها فى المزراة والسب ، فعبروا عنه بالهمزة لقوتها ، وعن عيب الأذن المحتمل بالواو لضعفها ، فجعلوا أقوى الحرفين لأقوى العيبين ، وأضعفهما لأضعفهما (١) .

(٥)

ويرى علماء العرب أن فى تقديم ما قدم ، وتأخير ما أخر ، وترتيبها على نحو معين أسراراً مدهشة . . فابن جنى يرى (أن فى تقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسط ما يضاهى أوسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب) (٢) . . ويمثل ابن جنى لهذه القضية بالمواد : (بحث . صد . جر) ويرى فى (بحث) مثلا أن الباء فيها لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض والحاء فيها تشبه مخالب الأسد وبرائن الذئب ونحوهما إذا غارت فى الأرض ، والثاء

---

(١) الخصائص – لابن جنى – ١/٥٠/ ٥٢ .
(٢) الخصائص – لابن جنى – ١/٥٥٥ .

للنفث والنبث للتراب ، وهذا أمر تراه محصلا ، فأى شبهة تبقى بعده ؟ أم أى شك يعرض على مثله ؟

(٦)

ويرى علماء العرب كذلك أن اختلاط الحروف وامتزاجها وتقليبها فى تركيب الثلاثى تقاليبها الستة المحتملة ، لايغير من حقيقة دلالة الحرف الواحد من أحرفها دلالة تعبيرية خاصة من خلال صوته وإيقاعه .

ومن ذلك ما ذكره ابن جنى من(ازدحام الدال ، والتاء ، والطاء ، والراء ، واللام والنون ، إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير فأكثر أحوالها ومجموع معانيها انها للوهن والضعف ونحوهما) (١) . . . ومن شواهد ابن جنى على ذلك : الشىء التالف ، والشيخ الدالف ، (الضعيف) والدنف المريض ، والفتور للضعف ، والطفل للرخص ، وهو ضد الشثن . . . فالفاء أعطت بمازجتها الدال ، والتاء ، والطاء والراء ،واللام ، والنون ، هذه الوجوه من التقاليب الستة المعروفة فى (الاشتقاق الكبير) .

وقد ألف ابن سينا كتاباً فى هذا الصدد سماه (أسباب حدوث الحروف) ذكر فى خلاله أن كل حرف من الحروف الهجائية يحكى صوتاً من أصوات الطبيعة ، (فالعين) تشبه ذلك الصوت الذى ينبعث من إخراج هواء بعنف من مكان رطب (والقاف) تسمع مثالها من فلق الأجسام وشقها (والشين) من نفوذ الرطوبات بقوة من خلال أجسام يابسة ، (والراء) من تدحرج كرة على لوح . . ويستطرد ابن سينا ليذكر بقية الحروف وما يقابلها من الأصوات الطبيعية .

(٧)

هذه لمحة دالة على آراء العلماء العرب فى المناسبة بين (الحرف) وبين

---

(١) الخصائص – لابن جنى – ١/ ٥٥٧ – ٥٥٨ .

مدلوله سواء كان هذا الحرف فى أول اللفظ ، أم فى وسطه ، أم فى آخره . . . يبقى أن نتأمل أبعاد هذه (المناسبة) بين (اللفظ) وبين مدلوله ، فيما سمى فى الدراسات اللغوية بالنظرية الثنائية والثلاثية ، مع عرفاننا الوهلىّ بأن ما نقدمه فى مثل هذا الحيز المحدود يمكن أن يشكل مجرد إشارة إلى حقيقة القضية وأبعادها الكمية فى تراثنا القديم والحديث .

وإذا كان العلماء قد لاحظوا القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، ودلالته فى الكلمة على معناه ، فقد لاحظوا كذلك القيمة التعبيرية ، للحرف مع الحرف فى لفظ ثنائى ، على القول بثنائية اللفظ العربى ، ولاسيما فى نشأته الأولى ، والمناسبة القائمة كذلك .

والثنائية كما تصورها القائلون بها :

١ — ثنائية تاريخية ذات مقطع واحد .

٢ — ثنائية معجمية مضعّفة ، ضعف حرفها الثانى فأصبحت ثلاثية بوساطة الشّدة ، أو — مضاعفة كرّر مقطعها بكلا حرفيه ، فأصبحت رباعية بطريق المضاعفة والتكرار (١) .

(٨)

وترجع الثنائية التاريخية عند أكثر القائلين بها ، إلى تفسير نشأة اللغة الإنسانية بمحاكاة الأصوات الطبيعية ، كأصوات الحيوان ، أو مظاهر الطبيعة أو التعبير عن بعض الانفعالات والأفعال التى تحدث عند وقوعها أصواتاً معينة : (فالكلم وضعت فى أول أمرها على هجاء واحد ، متحرك فساكن ، محاكاة لأصوات الطبيعة ، ثم فُئمت — أى زيد فيها حرف أو أكثر فى الصدر ، أو القلب ، أو الطرف — فتصرف المتكلمون بها تصرفاً يختلف باختلاف البلاد والقبائل والبيئات والأهوية ، فكان لكل زيادة ، أو حذف ، أو قلب أو إبدال ، أو صيغة ، معناة ، أو غاية ،

---

(١) أنظر : دراسات فى فقه اللغة — د : صبحى الصالح ص ١٤٧ .

أو فكرة دون أختها ، ثم جاء الاستعمال فأقرها مع الزمن على ما أوحته إليهم الطبيعة ، أو ساقهم إليها الاستقرار والتتبع الدقيق وفى كل ذلك من الأسرار والغوامض الآخذة بالألباب ، ما تجلت بعد ذلك تجلياً بديعاً استقرت على سنن وأصول وأحكام لن تتزعزع) . (١) .

وقد ارتضى غير قليل من علماء العربية هذا الاتجاه بقول ابن جنى (وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيح الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، وتزيب الظبى ، ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندى وجه صالح ومذهب متقبل) (٢)

ويوضح ابن جنى هذا الرأى أكثر ، ويخصه ببحث عنوانه : (باب فى إمساس الألفاظ أشباه المعانى) ويستهل هذا الباب بقوله : (اعلم أن هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه ، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته . قال الخليل كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدّا فقالوا : صَرّ . وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا فقالوا : صرصر . . وقال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفَعَلان : أنها تأتى للاضطراب والحركة نحو النَقَزان ، والغَلَيان ، والغَثَيان . فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال . . وجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذياه ، ومنهاج ما — مثلاه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير نحو الزعزعة والقلقلة ، والصلصلة والقعقعة ، والجرجرة ، والقرقرة . . .

---

(١) نشوء اللغة ونموها واكتهالها — الأب أنستاس مارى الكرملى — ص ١ .

(٢) ابن جنى — الخصائص — ١ — ٤٤ — ٤٥ .

ووجدت أيضاً (الفَعَلى) فى المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة نحو البَشكَى ، والجمزى ، والولقى) (١)

وممن ارتضى هذا الظاهرة عباد بن سليمان الصيمرى ، أحد علماء المعتزلة فى عصر المأمون فقد ذهب (إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع) قال : (وإلا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعيّن ترجيحا من غير مرجح) (٢)

وهكذا يؤكد عباد أن المناسبة إهنا ذاتيّة موجبة لاتتخلف ، تغنى فى فهم المدلول عن العلم بالوضع . . . وعلماء العربية على غير هذا الرأى . فالعلم بالوضع مهم لشدة الابهام فى بعض المناسبات ، يقول السيوطى : (وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعانى ، لكن الفرق بين مذهبهم ومذهب عبّاد ، أن عباداً يراها ذاتية موجبة ، بخلافهم ، وهذا كما تقول المعتزلة بمراعاة الأصلح فى أفعال الله تعالى وجوبا ، وأهل السنة لا يقولون بذلك مع قولهم : أنه تعالى يفعل الأصلح لكن فضلا منه ومنّاًلاوجوبا ، ولو شاء لم يفعله) (٥)

على أن ابن جنى يظل رائد اللغويين الذين لاحظوا هذا الظاهرة . وقرروها فهو يقول : (فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث

---

١ – ابن جنى – الخصائص – ١/٥٥٤ والبشكى : امرأة بشكى اليدين و العمل خفيفة سريعة . والجمزى حمار جمزى سريع . والولقى : عدو للناقة فيه شدة وأنظر (المزهر) للسيوطى ج ١ – ص ٤٨ .

٢ – المزهر – للسيوطى –١/٤٧

٣ – المزهر – لسيوطى – ١/٤٧ – ٤٨

فباب عظيم واسع ، ونهج متشعّب عند عارفيه مأموم ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها ، وذلك أكثر مما نقدّره ، وأضعاف مانستشعره ... ومن ذلك : القدّ طولا ، والقطّ عرضاً ، وذلك أن الطاء أخفض للصوت ، وأسرع قطعا له من الدال ، فجعلوا الطاء المنجزة لقطع العرض لقربه وسرعته ، والدال المماطلة لماطال من الأثر ، وهو قطعه طولا) (١)

(٩)

أمّا الثنائية المعجمية فمعناها أن كثيراً من المواد الثلاثية والرباعية مما ورد الاستشهاد به فى الثنائية التاريخية ، يرجع إلى أصول ثنائية ، زيد عليها صوت أو أكثر ، وبقيت هناك جوامع معنوية مشتركة بين الأصل المجرد والصيغة المزيدة ، مما يوحى بوحدة الأصل الثنائى ومجئ الزيدات لمجرد إضافة فارق معنوى جديد ، وإن بقى المعنى الأصلى بجوهره محتفظاً به (٢) .

يقول الأب أنستاس مارى الكرملى : (فممن قال بها ولم يحد عنها قيد شعرة الأصبهانى صاحب كتاب (غريب القرآن) فإنه بنى معجمه على اعتبار المضاعف هجاء واحد ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، فهو عنده من وضع الخيال ، لامن وضع العلم والتحقيق ، أى أنه إذا أراد ذكر (مد يَمدُّ مدّاً) مثلا فى سفره ، ذكرها كأنها مركبة من مادة (مد) أى ميم ودال ساكنة ، ولايلتفت أبداً إلى أنها من ثلاثة أحرف ، أى (م دد) كما يفعل سائر اللغويين ، ولهذا السبب عينه يذكر (مدّ) قبل (مدح) مثلا ،

---

١ – الخصائص – لابن جنى – ١/٥٤٩ – ٥٥٠ وانظر (المزهر) للسيوطى ج ١ – ص ٥٠ – ٥١

٢ – انظر : دراسات فى فقه اللغة – د : صبحى الصالح – ص ١٠٣٢

ولايقدّم هذه على تلك، على ما نشاهده فى معظم معاجم اللغة كالقاموس ، ولسان العرب وأساس البلاغة . وتاج العروس وغيرها) (١)

ولاحظ الأب مرمرجى الدومنكى أن (المضاعف العربى الذى يقال : أنه مركب من ثلاثة أحرف أصلية لاتجد مقابلة فى السريانية إلاّ بحرفين اثنين لا أكثر . مثلا مقابل مصّ = مَصْ . وبحذاء حَمْحم وبإزاء مسّ = مْس . وهكذا كل المضاعفات التى هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد فى كل الساميات متصفا بمعنى حقيقى تام) (٢)

وهذا يدعم الرأى الذاهب إلى ثنائى أصول العربية ، وردّ الثلاثيات إليها .

وابن فارس فى (المقاييس) يردّ أصل (باب القاف والطاء ومابثلثهما) إلى معنى القطع فيراه فى (قطع) الذى يدل على الصرم وإبانة شئ ، و (قطف) الذى يدل على أخذ ثمرة من شجرة ، وفى (قطل) الذى يدل على قطع الشئ ، وفى (قطم) الذى يدل على قطع الشئ أيضاً .. فالأصل فى كل هؤلاء هو القاف والطاء (قط) أما العين والفاء واللام والميم فقد جاءت زائدة على الأصل الثنائى ، لتخصص معنى القطع وتنوعه بين الصرم والأبانة والأخذ وتردده تبعا لأصواتها بين درجات الشدّة والغلظة فى إحداث القطع . (٣)

وهكذا يفعل ابن فارس فى (باب الفاء والراء وما يثلثهما) فهو يردّ الأصل إلى معنى التمييز والإفراد ، ليصير تفتّحاً فى الشئ وشقا فى (فرج) بسبب الجيم ، وتوحداً فى (فرد) بسبب الدال . وعزلا للشئ عن غيره فى (فرز) بسبب الزاى . وبمعنى الدق فى (فرس) لمكان السين . وبمعنى اقتطاع شى عن شئ فى (فرص) بواسطة الصاد .

---

(١) فقه اللغة ونموها واكتمالها – ص ٢

(٢) من كلمة القاها فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة

(٣) انظر : مقاييس اللغة – لابن فارس – ٥/١٠١ – ١٠٣

وبمعنى تأثير شئ فى شئ من حزّ أو غيره فى (فرض) لصوت الضاد. وبمعنى إزالة شئ عن مكانه وتنحيته عنه فى (فرط) لقوة الطاء . وبمعنى التمييز والتزييل بين شئين فى (فرق) للأُصَيْل المجهور المقلقل فى القاف . (١)

وإذا كان المعاصرون قدا فطنو إلى أن موقع الحرف الزائد على الثنائى — تنويعا للمعنى ، وتحديداً للفارق — يغلب أن يكون تذييلا للكلمة ، وإن جاء أحياناً فى وسطها وتصديراً فى أولها ، فإن جهود الباحثين اللغويين المتقدمين فى الفروق الدقيقة التى أوضحوها على النحو السالف ، هى التى مهّدت للمعاصرين أن يصلوا إلى هذه النتائج (٢)

---

(١) انظر : مقاييس اللغة — لأبن فارس — ٤/٤٩٨ — ٤٩ .

(٢) أنظر دراسات فى فقه اللغة د : صبحى الصالح — ص ١٥٨ . ويمكن أن نقول إن هذا الكتاب كان دليلنا هنا حتى فى الرجوع إلى المصادر القديمة د

دوران المادة حول معنى واحد
ودوران تقلباتها

رأى كثير من علماء اللغة أن الألفاظ التى تتقارب فى الشكل تتقارب كذلك فى المعنى ، وذهبوا فى ذلك إلى أنها جميعاً تنويعات على أساس واحد هو الأصل اللغوى(١) .

والاشتقاق بأنواعه : (الأصغر ، والكبير ، والأكبر) يبرز هذه الظاهرة على نحو من التجسد والتحديد ، فهو يعطى أصل الكلمة ، ويعطى أنواع التغيرات التى يمكن أن تدخل على هذا الأصل بالإشتقاق. ومع ذلك تبقى هناك علاقة معنى واضحة بين كل هذه التصاريف على اختلافها وتنوعها .

وقد ذهب بعض علمائنا إلى إنكار وقوع الاشتقاق بأنواعه كافة ، زاعمين (أن الكلم كله أصل ، . . . فى حين ذهب آخرون إلى القول بأن (كل الكلم مشتق) . . . ولكن الرأى المعتدل والصوابى هو مارآه السيوطى من أن (بعض للكلم مشتق ، وبعضه غير مشتق)(٢) ولاحاجة إلى الإسراف هنا أو هناك .

والاشتقاق الأصغر : هو أن يرتبط كل أصل ثلاثى فى اللغة العربية بمعنى عام وضع له ، فيتحقق هذا المعنى فى كل كلمة توجد فيها الأصوات الثلاثة مرتبة حسب ترتيبها فى الأصل الذى أخذت منه فالمعنى العام للعلم مثلا ، وهو إدراك الشىء وظهوره ووضوحه ترتبط بأصوات العين واللام والميم ، فيتحقق فى كل كلمة توجد فيها هذه الأصوات الثلاثة مرتبة على هذه الصورة مهما تخللها أو سبقها أو لحقها من أصوات أخرى لينة أو ساكنة

---

(١) انظر : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية – لجرجى زيدان – ص ٥٩ .
(٢) المزهر ١ / ٣٤٨ .

فيتحقق فى علم ، علمنا ، أعلم . نعلم . أعلمى ، علم ، علموا ، يعلم ، نعلم.تعلم ، تعلموا ، تعالم ، تعالموا ، علم ، علامة ، معالم ، أعلام ، علامات ، معلّم.معلّم ، الخ(١) وهذا النوع من الاشتقاق هو أكثر الأنواع ورودا فى العربية : (وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة . حتى يرجع منها إلى صيغة هى أصل الصيغ كلها دلالة اطراد أو حروفا غالبا ، كضرب فإنه دال على مطلق الضرب فقط ، أما ضارب ، ومضروب ويضرب ، وأضرب . فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفا ، وضرب الماضى مساو حروفا وأكثر دلالة وكلها مشتركة فى (ض رب) وفى هيئة تركيبها)(٢) أى أن أهم ما يميز الاشتقاق الأصغر هو ارتداد التصاريف المختلفة إلى معنى جامع مشترك يغلب أن يكون واحدا(٣) .

ومن أنواع هذا الاشتقاق نوعان لم يتوسع العرب فيهما توسعا كبيراً، ولكن مجمع اللغة العربية استخدمهما قياسا للحاجة إليهما ، وهما :

١ — الاشتقاق من أسماء الأعيان ، نحو : استحجر الطين ، واستنسر البغاث واستنوق الجمل ، واستأسد الرجل ، وقاس المجمع عليها : ممغنط ، وموسق . ومكهرب الخ .

١ — المصدر الصناعى ، وهو ما يتكون بزيادة ياء النسب والتاء على اللفظ للتعبير عن المعنى الحاصل بالمصدر ، مثل : الرجولية ، والألوهية ، الربوبية ، فقد قاس عليها المجمع واستعمل مثل : الغبائية ، والذكائية ، والانهزامية ، الخ .»

والاشتقاق الكبير : هو أن ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات

---

(١) انظر : فقه اللغة : على عبد الواحد وافى ص ١٧٢

(٢) السيوطى — المزهر — ١/٣٤٦ .

(٣) انظر : دراسات فى فقه اللغة د : صبحى الصالح — ص ١٧٦ .

ببعض المعانى ارتباطا مطلقا غير مقيد بترتيب ، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبط بها كيفما اختلف ترتيب أصواتها (١) :

ويذكر ابن جنى مثالا للاشتقاق الكبير أورد فيه تقاليب المادة الثلاثية : (س م ل) ورأى أن (س م ل) و (م س ل) و (س ل م) و (م ل س) و (ل س م) و (ل م س) مهما تقلبت واختلف ترتيبها الصوتى ، فإن : (المعنى الجامع لها المشتمل عليها . — الإصحاب والملاينة : منها الثوب (السمل) وهو الخلق ، وذلك لأنه ليس عليه من الوبر والزئبر ما على الجديد ، فاليد إذا مرت عليه للمس لم يستوقفها عنه حدة المنسج ولا خشنة الملمس ، و (السمل) الماء القليل ، كأنه شيء قد أخلق وضعف عن قوة المضطرب وجمة المرتكس ... ومنها (السلامة) وذلك أن السليم ليس فيه عيب تقف النفس عليه ولا يعترض عليها به . ومنها (المسل) و (المسيل) كله واحد ، وذلك أن الماء لا يجرى الأفى مذهب له ، وإمام منقاد به ، ولو صادف حاجزا لاعتاقه فلم يجد متسربا معه . ومنها (الأملس) والملساء . وذلك أنه لا اعتراض على الناظر فيه والمتصفح له ومنها (اللمس) وذلك أنه أن عارض اليد لشيء حائل بينها وبين الملموس لم يصح هناك لمس ، وإنما هو إهواء باليد نحوه ، ووصول منها إليه ، ولو كان هناك حائل لا ستوقف به عنه . . . فأما (ل س م) فمهمل ، وعلى أنهم قد قالوا : نسمت الريح إذا مرت مراً سهلا ضعيفاً ، والنون أخت اللام(٢) .

الاشتقاق الأكبر : هو أن ترتبط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض المعانى إرتباطا غير مقيد بنفس الأصوات بل بنوعها العام وترتيبها فحسب ، فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبطة به

---

(١) انظر : فقه اللغة — د : على عبد الواحد وافى ص ١٧٤ .

(٢) الخصائص — ١ / ٥٢٩ — ٥٣٠ .

منى ورت مرتبة حسب ترتيبها فى الأصل ، سواء أبقيت الأصوات ذاتها أم استبدل بها أو ببعضها أصوات أخرى متفقة معها فى النوع . ونعنى بالاتفاق فى النوع أن يتقارب الصوتان فى المخرج أو يتحدا فى جميع الصفات ما عدا الاطباق(١) .

فمن أمثلة التقارب فى المخرج : تناوب اللام والراء فى (هديل) الحمام ، و (هديره) وتناوب الواو والميم فى (أوشاج وأمشاج) . وتناوب الباء والميم فى (لازب ولازم) .

ومن أمثلة الاتفاق فى الصفات ماعدا الاطباق : تناوب الصاد والسين فى (ساطع وصاطع) و (سقر وصقر) و (سخرة وصخرة) .

ويرجع السبب فى كثير من هذا التناوب إلى اختلاف القبائل فى طريقة النطق بأصوات الكلمة .

وقد يختلف — فى هذا الباب — مدلولا الكلمتين بعض الاختلاف مع بقاء المعنى العام للمادة مشتركا فيهما . مثل (أزّ وهز) فالأز معناه الإزعاج والإقلاق . فهو مشترك مع الهز فى المعنى العام للمادة ، وإن كان أقوى منه فى الدلالة على هذا المعنى وأعظم وقعا فى النفس عندما يراد التعبير عن آثار نفسية ذات بال ... وقد تحدث ابن جنى فى باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى) عن هذه القضية فقال : وهذا باب واسع ، من ذلك قول الله سبحانه وتعالى : « إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا » .

أى ترعجهم وتقلقهم ، فهذا فى معنى تهزهم هزا ، والهمزة أخت

---

(١) انظر — فقه — دكتور / على عبد الواحد وافى ص ١٧٨ . والمزهر للسيوطى ١ / ١٦٤ — ١٦٥ .

الهاء ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين . وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم فى النفوس من الهز لأنك قد تهز مالا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك . ومنه العسف والأسف ، والعين أخت الهمزة ... فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين)(١) .

---

(١) الخصائص-١ / ٥٢٨ .

obeikandl.com

obeikandl.com

الاقتراض اللغوى ومظاهره فى العربية

من أهم المزايا التى حفظت على العربية شخصيتها بين أخواتها من اللغات السامية ، مع بعدها عن الشعوب الأعجمية ، وثوقها بمقدرتها الذاتية على التعبير ، وعلى التمثل والتوليد ، وعلى التخير والانتقاء وعلى الأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر ، ليس بين اللهجات العربية وحدها ، وإنما بينها وبين اللغات التى اتصلت بها من هنا أو هناك .

من هذا المنطلق ، فإن العربية لم تجبن فى معركة المواجهة بينها وبين غيرها من اللغات . . لقد أقرضت غيرها أشياء كثيرة ، واقترضت هى من غيرها أشياء كثيرة كذلك ، وهذه هى أهم ملامح اللغات الحية الفاعلة .

ففى الجاهلية عرب عن الفارسية مثل : الدولاب ، والدسكرة ، والكمك ، والسميد ، والجلنار . وعن الهندية أو السنسكريتية مثل : الفلفل ، والجاموس ، والشطرنج . . وعن اليونانية مثل : القبان ، والقنطار ، والترياق(١) ه

وقد ورد فى القرآن الكريم من معربات الجاهلية كثير ، حتى قال ابن جرير : (فى القرآن من كل لسان) وذكر السيوطى فى « المتوكلى » نماذج مما ورد فى القرآن بالرومية (كالقسطاس فإنه بالرومية الميزان) . وبالفارسية (كالاستبرق فإنه بالفارسية الديباج الغليظ) وبالهندية (مثل طوبى اسم الجنة بالهندية) . وبالسريانية (مثل السرى فإنه بالسريانية النهر) وبالحبشية (مثل الأرائك فإنه بالحبشية السرر) وبالنبطية (مثل عجّل لنا قطنا أى كتابنا بالنبطية) وبالعبرية (مثل كفّر عنهم سيئاتهم فإنه بالعبرية امح عنهم)

---

(١) أنظر المصطلحات العامية – للأمير مصطفى الشهابى ١٧ .

وبالتزكية (مثل غسّاق فإنه بالتركية البارد المنتن) ومع أن بعضه ليس صحيح النسبة إلى إحدى اللغات المذكورة ، فإن السيوطى كان له فضل توجيه النظر هذه الوجهة الجديدة التى لاترى فى تعريب القرآن الكريم للأعجمى خطرا ، بل تجد فيه مزية له على الكتب السابقة(١) .

ومع ذلك . فالقضية خلافية بين العلماء العرب ، فبينما يرى فريق من هؤلاء العلماء أن هذا الاتجاه من (خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة)(٢) يرى بعضهم أن (من زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول)(٣) ويذهب فريق ثالث إلى التوفيق بين الرأيين (وذلك ان هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ، لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ثم نزل القرآن الكريم وقد اختلطت الحروف بكلام العرب ، فمن قال : إنها عربية فهو صادق ، ومن قال إنها أعجمية فهو صادق)(٤) .

ويشرح الجواليقى : هذا النص السابق لأبى عبيد القاسم بن سلام ويوضح اتساقه وعدم تناقضه ، فيقول : (هذه الحروف بغير لسان العرب فى الأصل . . . ثم لفظت به العرب بألسنتها ، فعربته ، فصار عربيا بتعريبها إياه ، فهى عربية فى هذه الحال أعجمية لأصل)(٥) .

ولكن العربية مضت فى طريقها غير آبهة بمن يعترض طريق التطور ،

---

(١) انظر دراسات فى فقه اللغة – د / صبحى الصالح ص ٣١٦ .
(٢) نسب السيوطى هذا القول إلى ابن النقيب .
(٣) نسبه السيوطى إلى أبى عبيدة .
(٤) قارن المزهر ١/٢٦٩ بالمهذب ١/٨ والصاحبى ٢٩ – وانظر : صبحى الصالح.
(٥) المعرب – للجواليقى – ص ٥ .

فاحتضنت الكثير من المصطلحات المعربة حين احتاجت إلى ذلك فى عصر المأمون لتعبر عما تريد فى مجال الطب والطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والفلسفة ، تعبيرا علميا دقيقا(١) .

وقد لخص الأمير مصطفى الشهابى القواعد التى اتبعها النقلة فى وضع المصطلحات فى تلك الأيام فرآها لاتخرج عن هذه الوسائل الأربع :

١ – تحوير المعنى اللغوى القديم للكلمة العربية ، وتضمينها المعنى العلمى الجديد .

٢ – اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعنى الجديد .

٣ – ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها .

٤ – تعريب كلمات أعجمية بمعانيها .

٥ - وقد خضعت هذه الكلمات الوافدة للونين من ألوان التعديل فى أساليبها الصوتية حتى تتوافق مع القواعد الصوتية للغة العربية ، هذان اللونان هما : تعديل فى الأصوات بالزيادة أو بالحذف أو بالاستبدال . . وتعديل فى الوزن مبنى على التعديل فى الأصوات .

ولكن ينبغى فى هذا الصدد – ملاحظة أن كثيراً من الكلمات الأعجمية التى دخلت اللغة العربية ، يوجد لها نظائر فى مفردات هذه اللغة العربية ، أو فلنقل يمكن أن يشتق لها نظائر من مفردات هذه اللغة العربية .

والسبب فى ارتضاء هذه الكلمات الوافدة أول الأمر ، وعدم

---

(١) أنظر : دراسات فى فقه اللغة د : صبحى الصالح ص ٣١٤ – ٣٢٧ .

(٢) أنظر : المصطلحات العلمية – ص٣٤ – ٢٤ .

استعمال نظائرها أو اشتقاق نظائر لها أن حركة الترجمة من العلوم اليونانية والهندية كانت قد بدأت حين أخذ عهد الفصحاء فى الانقراض من الأمصار فتولى هذه الترجمات بعض مستعربة الأعاجم ممن لم تستحصد ملكاتهم اللغوية العربية ، لنقل هذه العلوم والفنون ، فعجزوا عن إيجاد مرادفات عربية ، أو اشتقاق مرادفات جديدة ، فنقلوا كثيراً من الأسماء الحيوانية والنباتية . وكثيراً من المصطلحات العلمية والفنية بصيغهـا الأعجمية(١) .

وينبغى كذلك ملاحظة أن بعض المفردات المعرّبة قد تغلب على مرادفه العربى لرقته وشيوعه ، (كالورد والنرجس والياسمين والمسك) فقد قضت على نظائرها العربية : (الجوجم والغبهر والسمسق والمشموم)(٢) .

على حين أن بعضها الآخر قد عجز عن منافسة مرادفة العربى فقل استعماله : (كالبوص والجردقة والقيروان والسجنجل والموزج والقومس) وشاع مرادفة العربى (السفينة والرغيف والجماعة من الخيل والمرآة والخف والأمير)(٣) .

وقد عنى علماء اللغة بتمييز الكلمات الدخيلة وحصرها : وألفوا فى ذلك مؤلفات على حدة .

ووضع بعضهم علامات يتميز بها كثير من الكلمات الدخيلة ، ومن هذه العلامات أن تكون الكلمة مخالفة للأوزان العربية : « ابريسم ، خراسان ، آمين ، جبريل » أو أن تكون فاؤها نونا وعينها راء « نرجس ، نرد ، نرجيل ، أو أن تنتهى بدال فزاى : « مهندز وقد قلبت زايه

---

(١) أنظر فقه اللغة د / على عبد الواحد وافى ص ١٩٦ :

(٢) أنظر الجزء الأول من مجلة مجمع اللغة ٣١٦-٣٢٧ والجزء الأول من المزهر للسيوطى ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) أنظر فقه اللغة د /على عبد الواحد وافى ص ١٩٧ .

سينا فى تعريبها » أو أن تشتمل على الجيم والصاد : « جص ، صنج ، صولجان » أو على الجيم والقاف : « المنجنيق ، الجوقة ، الجوالق ، وهى وعاء الجردقة وهى اسم للرغيف ، الجرموق وهو ما يلبس فوق الخف ، الجوسق وهو القصر ، جلق وهو موضع بالشام » .

أو أن تكون رباعية أو خماسية مجردة من حروف الذلاقة التى تجمعها قولك « مربنفل » . « جوصق »)(١) .

---

(١) د : على عبد الواحد وافى – فقه اللغة – ص – ص – ٣٠٠ .

obeikandl.com

عن المعجم العربى

(المعجم : كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة ، مقرونة بشرحها وتفسيرها على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً ، إما على حروف الهجاء ، أو الموضوع ، أو غير ذلك . . . والمعجم الكامل هو الذى يضم كل كلمة فى اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبين مواضع استعمالها) (١) .

وكان الصينيون من أسبق الأمم إلى وضع المعاجم اللغوية . ففى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ألف (باوتشى) معجما ضم (٤٠٠٠٠) كلمة ... أما أقدم معجم لاتينى فقد ألفه (وارو) المتوفى سنة ٢٨ قبل الميلاد . . . وقريباً من هذه الفترة ظهر أقدم معجم للغة (هوميروس) ألفه (أبولونيوس) الغراماطيقى الاسكندرى) فى زمن (أوغسطس) . . . ثم ظهر معجم اللغة اليونانية كاملا سنة ١٧٧ للميلاد ، ألفه (يولوس بولكس) . . . ثم ألف العرب وكانوا أسبق الأمم الحديثة تأليفاً فى المعاجم اللغوية . (٢)

فحين جاء الإسلام ، وهو بطبيعته (دين فتح وشمول) انساح المسلمون بقرآنهم الكريم فى شتى الجهات والبيئات . . حينذاك خيف على اللسان العربى المبين أن تلحقه عجمة الاختلاط فيتعثر النطق القرآنى الصحيح على شفاه المسلمين ، وتضيع خصائص العربية فى طوفان اشتباكها الحتمى مع اللغات الكثيرة الأخرى التى وقعت شعوبها فى قبضة هذا الإسلام الفاتح الجديد ، فنفرت طائفة إلى جمع المعجم العربى النقى ، وتحوطت فى ذلك إلى أبعد الآماد . ولكن يبدو أن زحف التطور كان أقوى .

---

(١) انظر الصحاح ومدارس المعجمات العربية ـ أحمد عبد الغفور عطار ص ٥٣ و(المعاجم) للدكتور عبد الله العزازى .

(٢) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجى زيدان ـ ج ٢ ص ٣٠٦

وإذا كان العرب — قبل عصر الخليل بن أحمد (١٨٠ هـ) — لم يعرفوا الشكل المعجمى الذى نعرفه نحن اليوم ، فإن حاجتهم إليه فى هذه المراحل لم تكن بأقل من حاجاتهم إلى أشياء أخرى كثيرة ، وربما أسعفهم فى ذلك رجوعهم إلى الرواة وحفظة الشعر الذى كانوا يوثقون فتاواهم فى هذا الصدد بما أثر عن العرب من شعر صميم ، وهو صنيع يقرب من الصنيع المعجمى وإن كانت صفحاته أدمغة القوم وليس ورق المعجمات . . . . ولكن ذلك يؤكد بوضوح رسوخ الحسّ المعجمى عند هؤلاء العرب من قديم .

(وكان الرواة كحمّاد والأصمعى وأبى عبيدة وغيرهم يروون ما يسمعونه أو يأخذونه عمن سمعه ويدونونه أو ينقلونه . ويدخل فى ذلك أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم وألفاظهم وعلومهم وآدابهم . ودوّنوا ذلك أولا فى كتب مستقلة . كل موضوع على حدةٍ ، ككتاب الإبل وأسماء الوحوش وخلْق الإنسان والخيل والشاء والنبات والشجر والنخيل وغيرها للأصمعى وكتب اللبن والمطر لأبى زيد الأنصارى ونحوها .

ويلحق ذلك ما ألفوه من كتب النوادر فى اللغة ، وهى تشتمل على النادر استعماله من الألفاظ ودلالاتها ككتب النوادر للكسائى وأبى زيد والشيبانى والقالى . وكتب الغريب فى اللغة ، كغريب أبى عبيد والشيبانى وابن الأعرابى ، وشروح الشعر فإن فيها كثيراً من الألفاظ المشروحة مع بيان أحوالها اللغويّة ، وسائر الكتب التى تبحث فى اللغة واشتقاقها وألفاظها ، وكذلك كتب الأضداد والأشباه والنظائر ومن هذا القبيل كتاب — الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ . وكتاب البارع للقالى . وأبنية الأفعال لابن القوطية ، ومنها كتاب « ديوان الأدب » لإسحق ابن ابراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ . خال الجوهرى صاحب تاج اللغة جعله على ستة كتب أولها فى السالم ، والثانى فى المضاعف . ٣ — المثال .

٤ ــ ذوات الثلاثة . ٥ ــ ذوات الأربعة . ٦ ــ كتاب الهمزة . وجعل كل كتاب من هذه الكتب شطرين : أسماء وأفعال وقدم الأسماء على الأفعال واستشهد بالأشعار . ومن هذا الكتاب نسخ خطية فى ليدن وأكسفورد وفى المكتبة الخديوية فى ٣٠٠ صفحة خط قديم .

فهذه الكتب وأمثالها كانت عوناً كبيراً فى تأليف المعاجم ، على أن الذين ألفوا المعاجم رجعوا أيضاً فى التحقيق إلى سماع الألفاظ من العرب العاربة أو ممن سمعها عنهم) (١) .

وبديهى أن كل العرب لم يكونوا على كلمة سواء فى فهم اللغة العربية ، ولم يكن حتى علماؤهم بمعصومين من الخطأ فى فهم دلالات الألفاظ وفى نحو الجمل . ولم يكن هذا القصور محصوراً فى علماء المسلمين وحدهم ، بل إنه تعداهم إلى الجاهليين أنفسهم فلم ينج بعضهم من لحن هنا فى القول ، أو خطأ هناك فى التعبير . . وكانت هذه بعض بواعث التأليف فى المعجم ، وليست كل البواعث بالطبع .

والذين نقلت عنهم العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب ــ كما يقول أبو نصر الفارابى ــ هم : (قيس وتميم وأسد . فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب والتصريف . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرىّ قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم حولهم ، فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤن ــ بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين للبونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من

(١) جورجى زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ ج ٢ ص ٣٠٦ ــ ٣٠٧ .

عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ،ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ولامن حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم) (١) .

إلى هذا المدى البعيد كان يمضى العرب فى التحوّط البالغ الحذر حين يقصدون إلى جمع اللغة ، حتى لاتتسرب إلى مصطلحها الأساسىّ شبهة من خطأ ، أو أثارة من اختلاط الحدود والأجناس ، وهذا يؤكد قضية خلوص العربية إلى العرب لغة نظيفة بما لايقاس بها غيرها من اللغات .. ان مجرد الانتقال المادىّ من البادية إلى الحضر ، ومجرد المجاورة لأمم لاتتحدث العربية ، ومجرد الاختلاط حتى للإقامة المؤقتة بمن تكون عربيتهم غير ناصعة الأصول والفروع ،ان مجرد الاقتراب من هذه الحدود يحيل المصدر إلى مصدر مرفوض ، حتى تظل للغة عصمتها إلى المدى الذى يطيقه البشر ، أما ما فوق الطاقة فهو يفرض حلوله التاريخىّ ليس فى واقع اللغة وحدها ، وإنما فى كل واقع مادىّ وروحىّ وفكرى بلاحدود .

وقد تطورت الفكرة المعجمية العربية منذ نشوئها الأول إلى عهد استوائها علماً محدداً بقوانينه وضوابطه على أربع مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة تفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم ، والحديث النبوىّ . وكلام العرب كالذى يفعله ابن عباس القائل : (الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله رجعنا إلى الشعر فالتمسنا معرفة ذلك منه) والقائل : (إذا تعاجم شئ من القرآن فانظروا فى الشعر فإن الشعر عربى) . وسأله نافع بن الأزرق – وصحبه مسائل كثيرة فى التفسير واشترطا عليه أن يؤيد كل كلمة بشاهد من كلام

---

(١) السيوطى – المزهر – ١/٢١١ – ٢١٢ .

للعرب فكان عند هذا الشرط ، وأجاب واستشهد في غير تلكؤ ولا إبطاء ؛ وصنيع ابن عباس رضى الله عنه صنيع معجمى على نحو من الأنحاء . (١)

والمرحلة الثانية : مرحلة جمع المفردات ، وشرحها ، والاستدلال عليها بما يؤيدها من كلام العرب ، وقد استبحر الناس فى هذا الصدد ، ولكنهم لم يفطنوا فى هذه المرحلة الباكرة إلى قانون يرتبون به الأشياء ، ويسلسلون به القضايا ، وابن عباس نفسه واحد من أبرز علماء هذه المرحلة وهذا الاتجاه ، ،

والمرحلة الثالثة : مرحلة ظهور نوع من الكتب التى تجمع الألفاظ فى أسماء الوحوش والغابات والشجر ، كما فعل الأصمعى . . ، وفى أسماء الأنواء والنبات — كما فعل الدينورى د د وفى مختلف الألفاظ الموضوعة لمختلف المعانى ، كما فعل ابن السكيت فى (الألفاظ) ، والهمدانى فى (الألفاظ الكتابية) والاسكافى فى (مبادىء اللغة) ، والثعالبى فى (فقه اللغة) ، وابن سيده فى (المخصص) .

وقد يتبادر إلى الأذهان أن بعض هذه الكتب المتصلة بالأحياء ، كتب فى علم الحيوان والتشريح ،(ولكنها كتب لغوية يحوى كل منها أسماء الحيوانات وأعضائها ومن الإنسان أسماء أعضائه وأحواله ، وكانت للعرب همة عالية فى استقصاء ذلك فى صدر دولتهم ، يتبارون فى التنقيب عنه من أماكنه ، إما بالسفر إلى البادية ، أو بالسؤال ممن يفد على البصرة والكوفة من فصحاء العرب) (٢) .

ولعل فيما كان يفعله الأمويون من استحثاثهم للأدباء والعلماء ما كان يدفع بهؤلاء إلى استظهار أمثال هذه الأشياء ، واستبحارهم فيها ، وقد

(١) أنظر : الصحاح ومدارس المعجمات العربية — لأحمد عبد الغفور عطار .
(٢) جورجى زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية — ج ٢ ص ١١٩ .

حدّثوا أن عبد الملك فى مجلس من مجالسه ضم جماعة من خواصه ومسامريه قال : أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه وله علىّ ما يتمنّاه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة فقال : « أنا لها يا أمير المؤمنين » فقال : « ما عندك » قال : (أنف ، بطن ، ترقوة . ثغر . جمجمة . خدّ . دماغ ، ذكر ، رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . ظهر . عين . غبه . فم . قفا . كتف . لسان . منخر . نغنغ . هامة . وجه . يد . . فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين) .

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : أنا أقولها فى جسد الإنسان مرتين . . فاستدعى الخليفة سويدا . فقال سويد أنا أقولها ثلاثا ، وقالها ...

(فهذا وأمثاله بعث الناس على العناية بحفظ ألفاظ اللغة ، وحمل الآخرين على التأليف بشكل مجاميع ، فكل مجموع فى موضوع ، فكتاب النخل والكرم مثلا لا يبحث فى طبائع النخل والكرم ومعالجتها أو زراعتهما ، وإنما هو يبحث فى أسماء أنواعهما وأغصانهما وما يتعلق بها من اسم أو فعل . . . وقس على ذلك كتب خلق الإنسان والإبل وغيرها فكل منها يشتمل على أسماء وأفعال تجمعها صفة مشتركة بينها فى المعنى ، فهى من قبيل المعاجم المعنوية التى تجمع مفردات اللغة فيها حسب معانيها ، تمييزاً لها عن المعجمات اللفظية التى تجمع بها الألفاظ بحسب هجائها على ترتيب الأبجدية ، وأشهر المعجمات المعنوية « فقه اللغة » للثعالبى ، و« المخصص » لابن سيده ، وهى أتمّ مما فعله الأصمعىّ وأترابه » . ولكنها تشبهها من حيث المراد بها . . وعلى كتب الخيل والشاه والإبل والشجر والكرم وخلق الإنسان وأشباهها من كتب النوادر والأمثال والأضداد واللغات والفروق وغريب القرآن والحديث وكتب المياه والجبال ونحوها ، عوّل واضعوا المعجمات فى ضبط الألفاظ ومعانيها فضلا عن تحريهم المفردات عن فصحاء العرب) (١) .

---

(١) جورجى زيدان – تاريخ آداب اللغة العربية – ج ٢ – ص ١٢٠ – ١٢١ .

والمرحلة الرابعة : مرحلة إخراج المؤلفات التي تجمع الألفاظ بطريقة حاصرة ، وتشرحها شرحاً دقيقاً ، وهذا اللون من التأليف هو ما أطلق عليه اسم (المعجم) .

وقد رأى أحمد أمين أن الدراسات اللغوية المعجمية سارت في مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : تدوين المفردات حيثما اتفق ، وكما يتيسر لهم سماعها . فقد يسمعون كلمة في الفرس ، وأخرى في الغيث ، وثالثة في الرجل القصير ، وهكذا ، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب .

المرحلة الثانية : جمع الكلمات الخاصة بموضوع واحد ، وأظهر ما كان ذلك في كتب الأصمعي فله كتاب الأنواء وكتاب الميسر والقداح وكتاب خلق الفرس وكتاب الإبل وكتاب الشاء ، وهكذا يجمع ما ورد من الألفاظ اللغوية في موضوع واحد ، ويسميه كتاباً وقد يكون الكتاب بضع ورقات (١) .

المرحلة الثالثة : وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص ليرجع إليه من يريد البحث عن معنى كلمة (٢) .

وهكذا نرى أن الحسّ المعجمي كان غائر الجذور في الذهنية العربية ، وأن تُشُوءَهُ وتطوره وارتقاءه تم وفقا للحركة الطبيعية في نشوء الأشياء وتطورها وارتقائها ، مما يؤكد أن طموح العقل العربي مؤسس على حقائق قارة فيه منذ البدء ، وأن علميته ناهضة على أساس من الوعي التاريخي بحقائق التطور العاقل وليس على أساس من الانفعال العاطفيّ الذي يتوهج لحظة وتخبو بلا رجوع .

لقد ظل هذا العقل العربي منصرفاً إلى اهتماماته الشاغلة طوال عصور

---

(١) انظر : ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٦٢

(٢) انظر : ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٦٥

النقاء اللغوى فلم يفكر طويلا فى الجمع والاستقصاء ، والترتيب لأن قضية الخلط اللغوى لم تكن واردة فى هذه العصور . . وما إن أحس هذا العقل ببوادر اقتراب الخطر من تخومه اللغوية حتى نفر إلى الجهاد والجلاد ، مسلحا ببصيرة الوعى وفقه التاريخ ، وأصالة الذات ، وأعطى فى هذا الصدد عطاء علمياً موضوعياً من جهة . وموصولا متطوراً من جهة أخرى ، فدلل بذلك على اقتداره وأصالته ، وسنرى — حتى من مجرد استعراض تاريخ التطور التأليفى فى المعاجم — كم كان هذا العقل العربى عظيماً وهائل العطاء .

ففى العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ألف الخليل بن أحمد معجم (العين) .

وفى العصر العباسى الثانى (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) ألف ابن دريد معجمه : (الجمهرة وفى العصر العباسى الثالث (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) ألف أبو على القالى (البارع) وقد ضاع أكثره ، وألف الأزهرى معجمه : (التهذيب) وألف الصاحب بن عباد (المحيط) وألف ابن فارس (المجمل) ، وألف الجوهرى (الصحاح) . وألف القزاز (الجامع) وقد ضاع ، وألف التيانى (الموعب) وقد ضاع . وألف ابن سيده (المحكم) و (المخصص) وهو معجم معنوى .

وفى العصر العباسى الرابع (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) ألف الزمخشرى (أساس البلاغة) وألف الصاغانى (العباب الزاخر واللباب الفاخر) .

وفى العصر المغولى (٦٥٦ — ٩٢٣ هـ) ألف ابن منظور (لسان العرب) ، وألف الفيروز آبادى (القاموس المحيط) وألف الفيومى (المصباح المنير) . ألف الرازى (المختار الصحاح) .

وفى العصر الحالى (٩٢٣ — ١٢١٣ هـ) ألف الزبيدى (تاج العروس فى شرح جواهر القاموس) .

وفى عصر النهضة (١٧٩٨ م — ألف المعلم بطرس البستانى (محيط المحيط) وألف سعيد الشرتونى (أقرب الموارد) وألف الأب لويس معلوف اليسوعى (المنجد) وألف المعلم جرجس همام الشويرى (معجم الطالب) وألف عبد الله البستانى (البستان) وأخرج مجمع اللغة العربية (المعجم الوسيط) و (المعجم الكبير) .

وهكذا أعطى العقل العربى صورة رائعة الاقتدار العلمى على التأصيل والتقعيد ودفع الحركة العلمية فى اتجاه التطور الدائم . لخدمة مواريثه ، فإذا عرفنا أن السبب فى (نشوء) هذه المعاجم كان الحفاظ على القرآن الكريم من أن يتسرب إليه الخطأ فى النطق أو فى الفهم . . وحراسة اللغة العربية من اللحن أو العجمة أو الفساد وحماية الثروة اللغوية العربية من الضياع بموت علمائها ورواتها : . عرفنا إلى أى حد كانت معاناة هؤلاء العلماء فى سبيل إنجاز هذا العمل العلمى الكبير ، وإلى أى حد كذلك كان ميدان البذل فى هذا الصدد يضج بأرتال من علماء هذه الأمة المرابطين على ثغور اللغة والدين :

ولكن ينبغى أن تذكر الحركة العلمية دائماً أن الخليل بن أحمد الفراهيدى (١٧٤ هـ) هو رائد هذا النوع من التأليف المعجمى على نحو منهجى متكامل صحيح ، فقد جمع الألفاظ وشرح معانيها ، ورتبها ترتيباً غير مسبوق ، وهذا حسبه . . فقد كان عمله هذا بمثابة نقطة الانطلاق التى تلقفها العلماء من بعده ، فأضافوا إلى ما بدأ به ، ونوعوا على الأساس الذى ارتضاه ، وخالفوه فى قليل أو كثير مما ذهب إليه . . وهكذا أخذ التطور يفرض حلوله على تاريخ الحركة العلمية المعجمية ، ونشأت عن كل هذا الجدل العلمى مدارس معجمية عربية ثلاث :

مدرسة التقليبات : بشعبتيها : شعبة التقليبات الصوتية ، وشعبة التقليبات الهجائية ومدرسة القافية ، ومدرسة الهجائية العادية .

ولكن ... متى أطلقت كلمة (معجم) فى هذا الاستعمال للمرة الأولى ؟ :

يقول أحمد عبد الغفور عطار : (إن أول من استعمل الكلمة رجال الحديث ، وأول ما عرف كان فى القرن الثالث ، وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو : « معجم الصحابة » لأبى يعلى التميمى الموصلى ، الذى ولد سنة ٢١٠ هـ وتوفى سنة ٣٠٧ هـ) (١) .

ويقول الدكتور حسين نصار : (ذلك أمر لا يستطاع ، لضياع كثير من كتبنا وآثارنا وأول ما عثرنا عليها عند أبى القاسم عبد الله بن محمد البغوى مؤلف المعجمين الصغير والكبير ، وقد ولد عام ٢١٤ هـ . ثم أطلقت فى القرن الرابع على كثير من الكتب وأشهرها المعجم الكبير والصغير والأوسط فى قراءة القرآن وأسمائه لأبى بكر محمد بن الحسن النقاش الموصلى (٣٥١ هـ) ومعجم الشيوخ لأبى الحسين عبد الباقى بن قانع بن مرزوق البغدادى (٣٥١ هـ) والمعجم الكبير والأوسط والصغير لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى (٣٦٠ هـ) ومعجم الشيوخ لأبى بكر أحمد بن إبراهيم الاسماعيلى (٣٧١ هـ) ومعجم الشيوخ لعمر بن عثمان البغدادى المعروف بابن شاهين (٣٨٥ هـ) ومعجم الصحابة لأحمد بن على المهدانى المعروف بابن لال (٣٩٨ هـ) .

أما متى أطلق هذا الوصف على المعجمات اللغوية ، فأمر لم أجد له أثراً فى المراجع القديمة ، وليس ببعيد أن يطلق عليها فى الوقت السابق نفسه ، لاشتراكها مع الكتب السابقة فى الترتيب على حروف المعجم ، فالدلالة الملاحظة فى الاسم هى الترتيب لا الجمع) (٢) .

وهكذا ترى أن الكلمة (المعجم) بمعناها اللغوى الدال على حقيقة علمية نعرفها نحن الآن ، لم تكن كذلك فى القرون الأولى ، ثم أخذت بعد ذلك فى التحديد والتحدد حتى أصبحت ما هى الآن .

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات العربية ص ٥٣

(٢) المعجم العربى نشأته وتطوره ج ١ ص ١٣ - ١٤

ومما ينبغى ملاحظته أن كلمة (المعجم) لم تكن وحدها الدال الوحيد على هذا النحو من التأليف المعجمى ، ولكن كلمة أخرى زاحمتها وفرضت وجودها إلى جوارها : وهى كلمة (القاموس) فقد سمى الفيروز آبادى معجمه باسم (القاموس المحيط) ومعناها البحر العظيم الشامل – فجرى هذا الاسم على الألسنة وتداولته الأقلام ، حتى أصبح (القاموس) مرادفا (للمعجم) .

ومهما يكن من شىء ، فإن الخلاف فى تاريخ نشأة (المعجم) كمصطلح . لا يتعدى القول بأنه نشأ فى القرن الثالث والقول بأن هذه النشأة كانت فى القرن الرابع ، وربما نظروا فى ذلك إلى أن بعض الكتب التى ألفت على حروف الهجاء وصفت بأنها سارت فى ذلك على حروف المعجم ، فقد نسب ابن النديم (١) لتزرج محمد العروضى « كتاب معانى العروض على حروف المعجم » ونسب ياقوت (٢) لحبيش بن موسى الضبى « كتاب الأغانى على حروف المعجم » وغيرهما .

ويقال بأن هذه التسميات إذا كانت تعود إلى المؤلفين أنفسهم فإن نشأة المصطلح تكون فى القرن الثالث . . أما إذا كانت هذه التسميات تعود إلى من كتب عنهم فإن نشأة هذا المصطلح تكون فى القرن الرابع ! !

---

(١) الفهرست ص ٧٣

(٢) معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٠ - ٢٢١

أهم الظواهر التاريخية فى وضع اللغة

حين اختلط العرب بغيرهم تحت راية الإسلام ، وخيف على لغتهم أن تشوبها شوائب العجمة والدخيل ، وفى ظل تأثير التطور الحتمى المصاحب لكل حركة علمية تواكب التطور الزمنى ، بدأ علماء العربية يبذلون من نشاطاتهم الفكرية والعقلية فى كل اتجاه .

فمنهم من اتجه إلى البحث فى طبيعة اللغة العربية من حيث إعرابها فكان علم (النحو) ، ومنهم من اتجه إلى البحث فيها من حيث جزالتها وفصاحتها فكان علم (البلاغة) ، ومنهم من اتجه إلى البحث فى أشعارها والأصول التى يجرى عليها شعراؤها فكان علم (العروض) ، ومنهم من اتجه إلى البحث فى بنيتها فكان علم (الصرف) ، ومنهم من اتجه إلى البحث فى حروفها وأصواتها فكان علم (التجويد) ، ومنهم من اتجه إلى البحث فى ألفاظها من حيث معانيها فكان علم (المعاجم) ، إلى غير ذلك من العلوم الإنسانية والطبيعية مما يزخر به تاريخ العقل العربى الذى حفزه الإسلام إلى امتلاك راية الريادة فى كثير من ميادين الخلق والإبداع .

ولعل هذه الظواهر التاريخية فى وضع اللغة تشير إلى حقيقة هامة ، هى أن بدء التأصيل الحقيقى لهذه العلوم وغيرها كان ثمرة اختمار الفكر التأصيلى فى الذهنية العربية ، فلما وجد الحافز — وهو هنا الخوف على لسان العروبة والقرآن — سارع هذا الفكر بالحلول الفعلى فى تاريخ الحركة العلمية على كل اتجاه .. وليس بضائر هذا الفكر أن يكون قبل هذه المرحلة فكرا إبداعيا لا فكراً تأصيليا ، أو أن يتزامن خوفه على لغته وقرآنه تحت إيقاع التشابك الحتمى فى ظل الإسلام بكثير من اللغات واللهجات والشعوب ، مع بداية زحف الترجمة من الفكر اليونانى والهندى والفارسى ، فيستفيد فى حركة تأصيلية لعديد من العلوم من هذا الفكر المترجم ، ولا يعصب عينيه دون هذه

الاستفادة ، لأن الفكر الضامر وحده هو الذى يعانى من عقدة النقص هذه ، أما الفكر الواثق والممتلىء فهو الذى يفتح نوافذه على كل الشموس، يأخذ ويعطى ، يؤثر ويتأثر ، يقيم بينه وبين ثقافة العالم من حوله هذا الجدل العلمى الذى بدونه لايمكن أن تمتلك حركة ثقافية مّا عافيتها واكتمالها وإذن فليس بضائر هذا الفكر العربى أن يكون فكرا إبداعياً فى مرحلة سابقة وأن يصير فكراً تأصيلياً فى مرحلة تالية ، وأن يستجيب فى هذه وتلك لكثير من العوامل البيئية والثقافية والحضارية ، وأن يحسن الجدل مع غيره من فكر العالم قديمه وحديثه، لأنه بهذه الوضعية وحدها استطاع فى مرحلة تاريخية محدودة أن يمتلك زمام التطور ، وأن يصير مصدر إشعاع للشرق والغرب ، وأن يعطى العالم كله حضارته الحقيقية ، مادياً وروحيا؛ فكريا ووجدانياً: إبداعا وتأصيلا .

وربما كان مرورنا العابر على ألوان من العلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة والقراءات والأدب واللغة والمعاجم ، ورمزا مجرد رمز — إلى ما أعطته الذهنية العربية فى عصور سطوعها الأولى ، فى هذه العلوم ، وفى علوم أخرى كالطب والفلك والرياضة والفيزياء والفلسفة وغيرها وغيرها مما تفيض فيه أعمال كاملة ولانستطيع مع ذلك أن نحيط به أو أن نستقصى كل ملامحه وأبعاده .

ففى النحو : تم ضبط القواعد التى يسير عليها إعراب المفردات ليسهل تمثلها واحتذاؤها ، ولترفع عن اللغة بعض أصر الاختلاط وماجره عليها من لكنة ولحن . . ثم ما لبث التطور أن أثرى هذه الدراسات فعرض علماء النحو للجملة ترتيبا وتأثراً وعلاقات وربطا وتقسيما ودلالة .

وفى الصرف : انكب علماؤه على تأصيل القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفاتها تغاير أبنيتها يتغير المعنى . . وكانت الجهود فى هذا

الميدان لا تكاد تنفصل عن الجهود المبذولة فى ميدان تأصيل علم النحو ، ولكن الزمن مازال بها حتى خص الصرف بنوعية خاصة من هذه الجهود ، إلا أنها مع ذلك لم تنفصل انفصالا باتا عن مسائل النحو فلا تزال مسائل منه ممتزجة بمسائل النحو .

وفى البلاغة : كان الغرض من وراء نشوئها كعلم هو التأصيل لأهم قواعد جمالية الأسلوب العربى ، وعلى قمته التعبير القرآنى الإلهى المعجز . . فأكب علم المعانى على بيان ما ينبغى أن يكون عليه الأسلوب من مطابقة لمقتضى الحال فصاحة حروف وكلمات ، وبلاغة مراعاة لمقتضيات الأحوال . . وأكب علم البيان على شرح المناهج الفنية التى يصاغ بها المعنى الواحد فى تراكيب متفاوتة فى وضوح الدلالة عليه حقيقة أو مجازاً . . وأكب علم البديع على دراسة المحسنات اللفظية والمعنوية التى يحتملها الأسلوب ، بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة على المعنى المراد . . وكانت فلسفة هذا التقسيم البلاغى تنهض على أن أثر علمى المعانى والبيان فى تحسين الكلام أثر (ذاتى) يتصل بصميم المعنى وأن أثر علم البديع فيه أثر (عرضى) يأتى لمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة على المعنى المراد . . . وهكذا تتكامل النظرة الفلسفية فى إحاطتها بالموضوع شكلا ومضمونا .

وفى القراءات : بدأت علومها بداية نقلية يتوارثها التلاميذ عن الشيوخ ، ولكن موضوعها (وهو بيان الوجوه التى يقرأ بها القرآن الكريم) فرض على العلماء فى العصر العباسى ضبط قواعدها ، ونقد أسانيدها ، وتأصيل اتجاهاتها . . ولعل الجهود التى بذلت فى هذا الصدد قد أفادت العربية من جهات : فقد درست اتجهات العربية فى صدر الإسلام . . ودرست أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ومخارجها وألوان المد بأحكامه والغن بقوانينه والتأثير المتبادل بين أصوات الكلمة أو الكلمات المتجاورة .

وفى أدب اللغة وتاريخ الأدب والنقد الأدبى : نهضت كل هذه العلوم فى العصر العباسى وأخذت شكل التحدد العلمى على قدر ما تسع طبيعتها من هذا التحدد ، وما تزال هذه العلوم — بطبيعتها القابلة — ولن تزال فى تطور مستمر ، خضوعاً لماهيتها من جهة ، ولطبيعة اتصالها بالتطور الفنى والذوقى والموضوعى من جهة أخرى .

وفى فقه اللغة : تطور التأليف فيه كعلم من مباحث الأصمعى فى الاشتقاق .. إلى مباحث ابن جنى فى أصل اللغة واطرادها وشذوذها وتصاقب ألفاظها لتصاقب معانيها ، وأنواع الاشتقاق وتركب اللغات واختلاف اللجهات . . إلى جهود ابن فارس فى خصائص اللغة وفقهها وقياسها ومترادفها واشتراكها ونحتها . . إلى جهود الثعالبى فى جمع بعض الألفاظ العربية المنسوبة إلى الرومية وبعضها القائم على لفظ واحد بين لغة العرب ولغة الفرس . . إلى جهود ابن سيده فى الترادف والتضاد والاشتراك والاشتقاق وتعريب الألفاظ الأعجمية . . إلى جهود الجواليقى والبشبيشى والسيوطى وشهاب الدين الخفاجى والشدياق وغيرهم من اللغوين المعاصرين الذين أعطوا فى فقه اللغة جهودا علمية جادة .

وفى المعاجم : تطور التأليف وتشعب وذهب إلى اتجاهات ثلاثة :

١ — (رسائل فى طوائف خاصة من الألفاظ أو المعانى ، ككتاب أبى حنيفة فى الأنواء والنبات ، وكتب يعقوب فى النبات والأصوات والفرق ، وكتب أبى حاتم فى الأزمنة والحشرات والطير ، وكتب الأصمعى فى الدارات والسلاح والإبل والخيل والشاء وأسماء الوحوش والنبات والشجر والنخل والكرم والمشترك اللفظى ، وكتب أبى زيد فى المطر واللبأ واللبن والغرائز والجرائم والمشترك اللفظى ، وكتب ابن قتيبة فى الرحل والمنزل واللبا واللبن ، وكتب ابن دريد فى صفات السرج واللجام والسحاب والغيث ، وكتاب الفيروز آبادى فى المترادف « الروض المألوف » فيما له اسمان إلى ألوف وكتاب ابن خالويه فى أسماء الأسد وأسماء الحية ، وكتاب أبى هلال العسكرى

فى الألفاظ التى تطلق على بقايا الأشياء « المعجم فى بقية الأشياء » والكتب التى ألفت فى الأضداد « الألفاظ التى تطلق على الشىء وضده » لقطرب والحسن بن محمد بن الحسن الصغانى وابن السكيت وأبى بكر ابن الأنبارى وأبى البركات بن الأنبارى وعبد الله بن محمد التوزى وابن الدهان وابن درستوية ، والمعجمات الفلسفية والعلمية وما إليها كـكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى والتعريفات للجرجانى والكليات لأبى البقاء ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لعبد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧هـ وهلم جراً . . وهذا النوع من المعجمات كان أسبق فى الظهور من النوعين الآتيين ، فقد ظهر بعض كتب منه فى قائمة العصر العباسى (١) .

٢ — (معجمات جامعة ترمى إلى بيان المفردات الموضوعة لمختلف المعانى ، فترتب المعانى بطريقة خاصة ، وتذكر الألفاظ التى تقال للتعبير عن كل معنى منها ، فنجد أبوابها مرتبة نحو هذا الوضع : خلق الإنسان ، الحمل والولادة ، والرضاع والفطام ، الغذاء السيىء للولد ، أسنان الأولاد وتسميتها فى المراحل المختلفة ، شخص الإنسان وقامته وصورته ، صفات الرأس ، قلة الشعر وتفرقه فى الرأس ، وهلم جراً ، وتذكر فى كل باب المفردات التى تعبر عن موضعه مرتبة ترتيبا خاصاً ، ومبيّنة مدلولاتها ومواطن استعمال كل منها .. فهذا القسم من المعجمات يرجع إليه من يعرف معنى ما ويرغب فى الوقوف على الألفاظ الموضوعة له . . ومن أشهر ما ألّف من معجمات هذا القسم خمسة كتب : أحدها : « كتاب الألفاظ » لابن السكيت (١٨٦ — ٢٤٤ هـ) وهذا هو أقدم ما ألف من هذا النوع ، وثانيها « الألفاظ الكتابية » للهمذانى (المتوفى سنة ٣٢٧ هـ) وثالثها : « مبادىء اللغة » للاسكافى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ورابعها : « فقه اللغة » للثعالبى (المتوفى سنة ٤١٩هـ) فى مجلد صغير . وخامسها : « المخصص » لابن سيده (أبو الحسن

(١) د / على عبد الواحد وافى — فقه اللغة ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

على بن اسماعيل الأندلسى المتـــــوفى سنة ٤٥٨ هـ) فى سبعة عشر جزءاً ، وهو أدقها دراسة وأحسنها تنسيقا وأكثرها استيعابا لمسائل البحث)(١) .

٣ – (معجمات جامعة ترمى إلى شرح معانى المفردات فترتب الكلمات ترتيبا خاصا ليسهل على من يريد الوقوف على معنى أى كلمة الرجوع إليها فى مواطنها . فهذا القسم من المعجمات ، على العكس من القسم السابق ، يحتاج إليه من يعرف اللفظ ويرغب فى الوقوف على مدلوله وأول من عمل على تدوين معجم شامل من هذا القبيل هو الخليل بن أحمد (١٠٠ – ١٧٤ هـ) فقد وضع كتابه : « العين » ورتب كلماته حسب ترتيبها فى مخارج أول حروفها ، مبتدئا بأقصى الحلق (ولذلك بدأه بحرف العين الذى سمى الكتاب باسمه ومنتهيا بالشفتين ، غير أنه يظهر أن المنون قد عاجله قبل إتمامه فأكمله جماعة بعد وفاته بأكثر من نصف قرن)(٢) .

وهكذا نرى أن لغة ما لم يتوافر لها ما توافر للعربية من معجمات لغوية ، فإذا تجاوزنا نوعيات الرسائل الصغيرة التى ظهرت فى القرن الأول الهجرى ، وجدنا عالم العربية الكبير الخليل بن أحمد فى القرن الثانى يفتتح عصر التأصيل المعجمى فى كتابه : « العين » ثم تتوالى الجهود من بعده فى وضع المعجمات المختلفة شكلا ، وموضوعاً وتبويباً ، بحيث لانكاد نجد قرنا من القرون لايظهر فيه معجم أو معجمات ، ولعل القرن الرابع بالذات كان عصر المعجمات الكبيرة ، فقد ظهر فيه « الجمهرة » لابن دريد (٣٢١ هـ) و « التهذيب » للأزهر (٣٧٠ هـ) و « المحيط » للصاحب بن عباد (٣٨٥هـ) و « المجمل » لابن فارس (٣٩٥ هـ) و « الصحاح » للجوهرى (٣٩٧هـ)... وهذا وحده يؤكد أن الذهنية العربية فى هذا القرن الرابع كانت قد استوت

---

(١) د : على عبد الواحد وافى – فقه اللغة ص ٢٧٦ – ٢٧٧ .

(٢) د : على عبد الواحد وافى – فقه اللغة ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .

على أوج النضوج العلمى المنهجى ، وأن العربية فى هذا القرن الرابع كذلك كانت قد استدعت بما لا يدع مجالا للشك جهود علمائها الباذلين فى مجال التأصيل والتقعيد والتنظير ، حماية لمصطلحها اللغوى أن تشتبه معالمه وأن يختلط أنسابه وأسبابه ، وأن يصبح فى زمن قادم موضع ارتياب وتأويل ومجادلات ، وقد كان علماء العربية عند حسن ظنها بهم ، فأعطوها أروع ما عندهم ، وهو أروع ما عند للعالم فى زمانهم وفى كل زمان !!!.

obeikandl.com